أشياء شخصيّة

عبد السلام العجيلي





عبد السلام العجيلي

أشياء شخصيّة

طبعة جديدة مزيدة

دار الحقائق - مكتب الكرمل للدراسات



الطبعـة الثـانيـة
نـيسـان ١٩٨٠

مقدمة

تصل إليَّ بين الحين والحين ، من دارسي الأدب ومؤرخيه ومن الصحف الدورية التي تهتم بالأدب أو بالسياسة أو بالحياة الاجتماعية ، اسئلة بعضها ذو علاقة بسيرتي الشخصية وبعضها بآرائي في طائفة من الأمور العامة ، قديمها وجديدها .

ولست الوحيد في التعرض إلى اسئلة من هذا النوع . إنه عصرنا الذي يكفّر عن ابتلاعه للفرد ، أو عن سحقه أحياناً للفرد في مسيرة الجموع ، يكفّر عن هذا وذاك بتسليطه النور على افراد ، قليلين نسبياً ، لطفوّهم على السطح لسبب من الأسباب ، المهمة أو التافهة .

مثلي في هذا مثل الرياضي الذي يكسر رقماً قياسياً ، وبائع الحمص الذي يربح ورقة يانصيب ، والفائز بجائزة نوبل والمتسنّم منصباً سياسياً كبيراً ، والبائس الذي يفقد زوجته وأطفاله في انهيار سقف المنزل عليهم . كلهم عرضة لمثل هذه الأسئلة التي ترضي غرورهم أول الأمر ، أو تشغلهم عن بؤسهم بعض الوقت ، ثم لا تلبث حتى تنقلب ، إذا جاوزت حدها ، جحيماً يضاعف البؤس أو ينغّص الفوز .

وقد حدث لي في أكثر من مرة أن طبعت خلاصة من ترجمة حياتي مهيأة لتكون جواباً على السائلين ، حينما يسألون . ولكن ذلك لم يرحني ، لانه يكاد يكون مستحيلاً أن يحيط المرء مسبقاً بكل ما يمكن ان يلقى عليه من اسئلة . ثم إن ذلك لم يرضني ، لأن بعض الاسئلة من الأهمية بحيث أني كنت ، في قرارة نفسي ، اشكر سائليها على الفرصة التي أتاحوا لي بها الاجابة عليها وعرض رأيي فيها . . .

هذا لأننا ، وأقصد بنا الفئة من الناس التي أصبح تعبيرها عن أفكارها ومشاعرها طبيعة ثانية لها لطول ممارستها لهذا التعبير ، أننا وأن تظاهرنا بالضيق من التحدث فيما يطلب الينا التحدث فيه ، كثيراً ما نكون في حاجة إلى أن ننفث ما في صدورنا وعقولنا إلى الجمهور الذي نتصور أنه دوماً متعطش لتلقي ثمار افكارنا .

وقد وجدت ، بين كثير من الردود على الاسئلة الكثيرة التي وجهت إلي في مناسبات كثيرة ، ردوداً صالحة لأن تكون جواباً دائماً على اسئلة دائمة الالقاء . كما وجدت بينها ردوداً صالحة لان تسجل لأهمية المواضيع التي تعالجها . فجمعت هذه وتلك ، وأضفت إليها بعض آرائي التي أدليت بها في مناسباتٍ مقاربة ، وأخرجتها في هذا الكتيّب الذي سميته « أشياء شخصية » .

هذه « الأشياء » قد لا تكون « شخصية » ذات صميمية كالتي يوحي بها اسمها . فهي ليست ترجمة ذاتية صريحة. ثم ان اشيائي الشخصية لم أقصرها على هذا الكتيب . فكل ما كتبته ، من قصة ورواية ومقال وحديث ، كان اشياء شخصية مثل هذه، أو أكثر اتصالاً بشخصي الخاص . ولكن التسمية قد تكون منبعثة من كوني قلت « أنا » في هذا الكتيب أكثر وأصرح مما قلته في أي من كتبي الاخرى . . . أنا الكثير التحرج ، في العادة ، من كلمة « أنا » !

الرقة ١-١-١٩٦٨

مقدمة الطبعة الثانية

تضم هذه الطبعة من « اشياء شخصية » فصولا لم تحوها طبعتها الاولى ، ولكنها لم تخرج في موضوعاتها عن موضوعات الكتاب . وهذه الفصول الاخيرة هي بعض ما تضمنته مقابلات لي كثيرة مع المحررين والمحاورين ، في السنوات الاثنتي عشرة الاخيرة ، مما نشر في مختلف الصحف والمجلات واذيع في الاذاعات المسموعة والمرئية، اجتزأت بها توخيا للاختصار وتجنبا للتكرار .

وكنت ، حين ظهرت الطبعة الاولى ، قد خصصت بنسخها معارفي والمهتمين بنتاجي الادبي من الباحثين ، فلم اعرضها في المكتبات على جمهور القراء ، حتى نفذت تلك النسخ . الا اني رأيت ، بعد شيء من التردد، ان لا احجب الطبعة الجديدة عن عامة القراء . فقد يجد كتابي هذا قبولا ، ولاسيما من اولئك الذين قراوني في كتبي الاخرى والذين عرفوني مما تنشره لي دوريات العالم العربي المختلفة . وهؤلاء وغيرهم ربما اهمهم أن يتعرفوا ، من خلال هذا الدليل ، الى حياة الانسان ــ الكاتب الذي سمعوا به وقراوا له ، والى آرائه ومعتقداته .

فعسى ان يجد قراء هذه الطبعة في ما ذكرته عذرا لي مقتنعا ، وفي ما كتبته مفيدا لهم وممتعا .

صور من حياة

ردود على اسئلة موجهة من الاستاذ يسين رفاعية ، نشرت في ملحق جريدة « النهار » البيروتية في ١٩٦٥/١٠/١٧ .

« ١ – اين ولدت »

ولدت في الرقة . بلدة صغيرة ، أو قرية كبيرة على شاطىء الفرات بين حلب ودير الزور . سكانها في أيام مولدي كانوا يتألفون من بضع اسر عربية أو مستعربة نزحت إليها من بلاد مختلفة (من الموصل ، من الرها أو أورفا في تركيا ، من العشارة بالقرب من دير الزور) وهي في الأغلب اسر تعيش الحياة البدوية لأنها من أصل بدوي أو كائنة في وسط بدوي . فمن الناحية الاجتماعية تسيطر العصبية القبلية على حياة الناس، فالقوانين السائدة هي القوانين العشائرية التقليدية : الثأر والدية والمقاضاة أمام العوارف (العوارف جمع عارفة وهو قاضي العشيرة أو الرجل الثقة عند القبائل) . ومن الناحية الاقتصادية كان أغلب أهل الرقة ، واسرة العجيلي منهم ، يعيشون حياة نصف حضرية بأنهم كانوا في الشتاء يقيمون في البلدة فإذا جاء الربيع خرجوا إلى البادية يرعون فيها أغنامهم ويتنقلون بين مراعي الكلأ حتى أوائل الخريف . وقد عشت هذه الحياة في صباي فأثرت فيَّ كثيراً وقبست منها كثيراً في ما كتبت .

أسرة العجيلي فرع من عشيرة عربية هي عشيرة البوبدران واصلها في بادية الموصل في العراق ، وبعض فروعها مقيم الآن في بادية دير الزور ملتحق بعشائر البقّارة . وقد نزح العجيلي من الموصل إلى الرّها ثم إلى الرقة . ولا يزال بيننا وبين أقاربنا في الموصل وفي الرّها (في تركيا) تواصل وتزاور . ويحتفظ مشائخ العشيرة في الموصل بشجرة النسب التي تثبت أن البوبدران « سادة » ، أعني من سلالة الحسين بن علي بن ابي طالب .

وقد اشتهر ابناء العجيلي منذ أوائل نزولهم في الرقة في أيام الحكم التركي بحب المعرفة وفنون القراءة والكتابة فكانت صلاتهم بالحكم شديدة كما كانوا الأوائل في التحضّر بين مواطنيهم . كما أنهم عرفوا برهافة الحس فكان منهم

شعراء (باللغة البدوية) وأصحاب حكايات في الهوى . وحين كنت صغيراً كنت لانطوائي على نفسي أبدو مترمتاً واستمر ذلك إلى أيام شبابي. فكان العارفون بحكايات اسرتنا يعجبون من تقصيري في ميدان العاطفة الذي طالما صال فيه اسلافي وجالوا . . .

متى ولدت ؟ لم يكن في الرقة في تلك الايام سجلات ثابتة للمواليد . ويبدو أني ولدت في أواخر تموز في سنة ١٩١٨ أو ١٩١٩.وأنا أصر دوماً على التاريخ الأول رغم أن الأغلب هو صحة التاريخ الثاني ، وذلك لضيق مني بالذين يحاولون انقاص ما يقدرون على انقاصه من أعمارهم كأن فرق سنة واحدة يهب الشباب لمن فارقه الشباب ! [1]

« ٢ – مراحل الدراسة . . . اين ومتى انتهت »

بدأت دراستي الابتدائية مبكراً،في الرقة،وقد نلت الشهادة الابتدائية السرتيفكا في عام١٩٢٩ وانتسبت في السنة التالية لتجهيز حلب.ولكن مرضاً،لا أدري الآن على التحقيق ماذا كان ، حال بيني وبين متابعة الدراسة فرجعت إلى الرقة وانقطعت عن المدرسة، بالرغم من شفائي ، مدة اربع سنين . وكان هذا الانقطاع ذا أثر كبير في حياتي . فقد أتاح لي الانصراف إلى القراءة والاطلاع على كل ما وقع بين يدي من كتب قرأتها بنهم : كتب دينية ،

(١) حكايتي مع السجلات الرسمية للمواليد ، ما يدعى في سورية بقيود النفوس : حكاية غريبة وتكاد تكون مضحكة . فان عـــام ولادتي مثبت بصورة متغيرة في مختلف شهاداتي الدراسية وفي عدد من الصكوك الرسمية . اكتشفت مؤخرا ان أقدم قيد لمولدي موجود في تذكرة تعود الى آخر أيام الحكم العثماني في الرقة ، وفيها انني مولود في ٢٣ تموز سنة ١٩١٨ . الا اني ، أثناء دراستي الابتدائية ، كنت أحمل قيد نفوس سوريا في تذكرة تقول اني مولود في عام ١٩٢٠ . ولان هذا القيد لم يكن يسمح لي بدخول فحص السرتفيكا ، أجري لي في عام ١٩٢٩ تصحيح سن جعلني مولودا في عام ١٩١٦ ... وفي يوم ٤ تموزعام ١٩٤٠ تعرضت بلدة الرقة ، بين انسحاب قوى الفرنسيين الفيشيين منها ودخول قوى الديغوليين والانكليز اليها ، لعمليات سلب ونهب احرقت فيها محتويات الدوائر الرسمية ، ومن بينها سجلات النفوس ، مما اضطر الحكومة الى اجراء تسجيل ارتجالي للسكان ، لم أحضره لاني كنت أتابع دراستي في جامعة دمشق ، فسجلت في القيود الجديدة على اني مولود عام ١٩١٧ ... وفي عام ١٩٤٣ ، وكنت لا أزال طالب طب ، رشحت لخوض الانتخابات النيابية عن الرقة ، وكان قيد نفوسي الاخير هـذا يجعلني صغير السن بالنسبة لشروط ترتيبها ، فيها اني مولود عام ١٩١٣ ! وهذه التذكرة الاخيرة هي التي أحملها الآن . وبقي أن الاقرب الى الصحيح في ظني ، بعـد اكتشاف تذكرة النفوس التركية الاولى ، اني مولود في تموز من عام ١٩١٨ ... والله أعلم بالصواب .

قصص شعبية مما يمكن أن يوجد بين أيدي الناس في بلدة مثل الرقة ، كتب من الأدب القديم ، وكتب التاريخ العربي . وحين عدت إلى تجهيز حلب عدت بذخيرة كبيرة من هذه القراءات المتنوعة مما جعلني أكثر اطلاعاً من كل رفاقي ، وفي بعض الاحيان من اساتذتي ، في التاريخ والأدب وأكثر منهم حفظاً للشعر ومعرفة بالشعراء .

ولعودتي إلى الدراسة قصة . فقد كان والدي يميل إلى ابقائي معه في الرقة لاتولى معه ادارة اعماله واملاكه منذ الصغر ، ولكن ميلي إلى الثقافة والمعرفة كان كبيراً . وفي ذات مرّة كان شباب البلدة يقومون بتمثيل رواية فأعددت قصيدة (ربما كانت أول قصيدة صحيحة النظم لي) واعطيتها لاحد رفاقي ليلقيها كفاتحة للرواية مشترطاً أن لا يذكر أني ناظمها . وحين ألقيت القصيدة ونالت الاستحسان ثم عرف أني ناظمها (كنت حينذاك في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة) اشتد الالحاح على والدي لارسالي إلى حلب لاتم دراستي . وهكذا كان . وبدلا من أن أدخل السنة الاولى في الدراسة الثانوية قدمت فحصاً تجاوزت به صفين ، ولهذا ضاع عليَّ من السنين الاربع التي فاتتني اثنتان واستدركت اثنتين . ولا بد لي من القول أن هذا الانقطاع عن الدراسة قد أفادني من ناحية أخرى . فان صغر سني حين نلت السرتفيكا لم يكن يؤهلني لتفهم كل نواحي الدراسة فقد كنت موهوباً في اللغة والدراسات العامة ولكني كنت مقصراً في العلوم والرياضيات ، ربما عن عدم اكتمال نفسي أو ادراكي ، فلما عدت إلى الدراسة اكتشفت ان ما كنت اتخوف منه من تقصير في العلوم الرياضية والفيزياء قد تلاشى بل اكتشفت أن مقدرتي على تلقي هذه العلوم لاتقل عن مقدرتي في تلقي الأدب والتاريخ . وقد اعطاني ذلك ثقة كبرة في نفسي . وقد كنت من أوائل الطلاب في الفيزياء والرياضيات ونلت شهادتي في البكالوريا الثانية في فرع الرياضيات . كما كنت أول دورتي في صفي البكالوريا الأولى والثانية بين كل طلاب سورية في كل من عامي تخرجي .

بعد البكالوريا الثانية التي نلتها في حزيران ١٩٣٨ انتسبت إلى جامعة دمشق فدرست فيها الطب طوال سني الحرب . وانتهيت من الدراسة بانتهاء تلك الحرب في عام ١٩٤٥ . ولا بدَّ من القول أني بعد أن نلت البكالوريا كانت نظرتي إلى الحياة قد تغيرت . وبموجب هذه النظرة أصبح لي رأي في أن الدراسة العلمية ليست كل شيء في الحياة . وخطر لي آنذاك ان اقف بالدراسة عند حد البكالوريا وأن أخوض في الحياة العملية متولياً اعمال والدي (اعمال زراعية ، ادارة املاك) . ولكن موقف والدي في هذه المرة كان كذلك معاكساً لموقفي (كما كان اثناء انقطاعي عن الدراسة الثانوية) فقد أصرَّ على أن أتم دراستي الجامعية . وكان يفضّل لي أن أدرس الحقوق إلا أني حين وجدت أن عليَّ أن أتم تعلمي فضلت الدراسة العلمية.ولم يكن متيسراً من العلوم في سوريا إلا الطب . وهكذا انتسبت إلى كلية الطب في دمشق .

أذكر أن واحداً من معلمينا ونحن صغار طلب أن يكتب كل منا في المهنة التي يريد أن يمتهنها في حياته . وقد كتبت آنذاك أني أريد أن اكون عندما أكبر طبيباً أخدم الانسانية واعمل في مواساة المرضى وتخفيف آلامهم . وحين كبرت كنت اطمح إلى الانصراف إلى البحث العلمي في ميدان الفيزياء بصورة خاصة ، ثم إلى خوض الحياة في ميدان الاعمال . ولكن الحياة اعادتني إلى امنيتي الأولى . وانا غير نادم الآن ، فاني أجد أن الطب يعطيني أشياء كثيرة ، من الناحية النفسية والفكرية بصورة خاصة ، لا أجدها في غيره من أعمال الحياة ، وإذا خيرت فاني لن اتخير لحياتي عملاً غير العمل الذي امارسه ولا سيما بالطريقة التي امارسه بها .

«٣ – ذكرياتك قبل البدء بالكتابة»

ذكريات ما قبل الكتابة هي ذكريات البيئة التي عشتها بألوان حياتها البسيطة ولكنها مع ذلك فريدة أو غير مألوفة أو كما يسميها الفرنسيون Exotique

ثم ذكريات القراءة الموحية بتصورات متنوعة وبسلوك في الحياة متأثر بهذه القراءات . فالقراءات الدينية ، مع البيت المتدين الذي أعيش فيه ، ساقتني إلى التأملات الدينية وإلى ممارسة الصلاة والصوم منذ سني الصبا الأولى . وقراءات قصص المغامرات أوحت لي بأحلام يقظة كثيرة عن مغامرات أنا بطلها . وأذكر أن والدي فاجأني وانا في ظل جدار الطاحونة التي كنا نملكها وكنت أتلقى دروس الحياة العملية فيها ، فاجأني وأنا منصرف إلى احلامي فسألني عما أفكر فيه فصارحته بأني أتصور نفسي بطلا لاحدى القصص التي كنت قرأتها فلم يرق له ذلك وقرّعني قائلا أنه كان يتصور أن أفكر في طريقة أوسع فيها اعماله . وفي الحق أن والدي كان ذا حس عملي كثير النمو ، ولكني كنت ، ولاأزال ضعيفاً ، في هذه الناحية ، قليل الميل إلى العمل المادي . (وهذا لا يعني فشلي في الحياة العملية . فبالرغم مما قلته فاني لم اشك الفشل في الحياة العملية . وربما كان ذلك لأن تصميمي على انجاز أمرٍ ما يتغلب دوما على ميولي العاطفية التي أحملها لذلك الأمر) .

« ٤ – كيف بدأت الكتابة »

ما بقي في ذاكرتي عن كتاباتي الأولى ، أو محاولات الكتابة ، هي أنها كانت مزيجاً من محاولة التعبير عما في النفس والتقليد لما كنت أقرأ . بدأت المحاولات في الثانية عشرة من عمري بتأليف تمثيلية حول قصة تاريخية جرت في ضواحي الرقة قرأتها في احدى الروايات الرخيصة ، وذلك في وقت لم أكن أعرف فيه عن المسرح غير ما شهدته من تمثيل احدى الروايات المسرحية المدرسية . وبدأت كتابة قصة بوليسية لطول ما فتنت بالروايات البوليسية . وحين قرأت آلام فرتر بدأت بكتابة مذكرات شخصية أتوخى لها أن تنتهي بما انتهت به قصة فرتر لغوته . ونظمت مقاطع مقفاة ظننت انها الشعر حتى أنبأني معلمي في المدرسة الابتدائية الاستاذ ثابت الكيالي أن الشعر له وزن لابد أن يتقيد به الناظم ، فجهدت حتى أدركت معنى الوزن فنظمت الشعر متقيداً به قبل أن أعرف العروض ، ولكني كنت اغني الابيات على

الحان بعض القصائد الدينية التي كنت احفظها حتى أضبط أوزانها . وبالطبع كانت كل هذه محاولات . وأول ما نشرته كان قصة بدوية بعنوان « نومان » نشرتها لي مجلة الرسالة المصرية التي كان يصدرها الاستاذ الزيات وذلك عام ١٩٣٦ . وقد كان نشر هذه القصة مصدراً لثقة كبيرة في نفسي لم أجهر بها لأحد لأني نشرت القصة بتوقيع ع.ع. . ولكن تلك القصة كانت أول ما ارسلته للصحف في حياتي الأدبية . فكونها نشرت مباشرة ودون تأخير . وكون نشرها كان في المجلة الأدبية الاولى في العالم العربي . امران لم يكونا عاديين . وربما كان الأصح أن أقول بأن نشر تلك القصة كان تحقيقاً للثقة التي كنت أجدها في نفسي إذا تذكرت بأني عن قصد وجهت أول قصة أكتبها إلى تلك المجلة الذائعة الصيت .

« ٥ — ذكرياتك بعد الكتابة »

إلى أن انتهيت من دراستي الثانوية ظلت الكتابة نشاطاً خفياً لي . فقد كان اساتذتي واصدقائي يعرفون اني شاب موهوب في الأدب مثلما كنت متفوقاً في الرياضيات والعلوم . وما كنت انشره لم يكن يدري به أحد . فقد نشرت في المكشوف بعض القصائد والقصص والتعليقات ولكن باسماء مستعارة لم أكن أطلع احد على حقيقتها . وحتى قصتي الأولى لم أذكر لأحد أني نشرتها في الرسالة . مع أن ذلك كان جديراً أن يلفت إليّ أنظار المتأدبين في مدرستي وفي حلب كلها . وقد استمررت في التخفي وراء الاسماء المستعارة حين كنت أكتب في الصحف الدمشقية الادبية والسياسية ، حين بدأت دراسة الطب ، حتى أكتشف الاستاذ سعيد الجزائري هذا الطالب الذي كان يدخل المسابقات فيفوز فيها ثم لا يتقدم إلى أخذ الجائزة لئلا يعرف اسمه . وقد كانت تلك بداية صداقتي بالاستاذ الجزائري الذي كشفني للقراء كما كان حاثاً لي . بطريقته المعروفة . على الانتاج الأدبي . وهمزة وصلٍ بيني وبين كثير من الاوساط التي كنت اتجنبها بانطوائيتي المعهودة ،

وبميلي إلى أن أكون في الأدب مجرد هاوٍ لا عاملا جاداً . وكمثال على ذلك أروي الحكاية التالية :

بعد ظهر أحد الأيام سمعت الاستاذ سعيد يناديني وهو واقف تحت شباك غرفتي في البنسيون الذي كنت اسكنه في حارة « دك الباب » بدمشق ، واطللت من الشباك فسمعته يقول أن هناك مسابقة في اذاعة دمشق (أيام الحرب) معهوداً بها اليها من اذاعة لندن ، وأن جائزتها عشرة جنيهات ؛ فلماذا لا أدخلها ؟ قلت له : متى ميعادها ؟ قال آخر موعد لقبول القصائد هو غداً صباحاً . قلت : الوقت ضيق ولديّ بعض الدروس في الجامعة بعد الظهر . قال ما عليك إلا أن تمشي بضع خطوات في شارع بغداد (وكان شارعاً قليل البنيان في تلك الاثناء ، مظلماً بالتعتيم الحربي) فتأتي القصيدة ! وألح عليّ في أن اشترك في المسابقة ، فسألته عن المحكمين فسمّى لي بضعة أسماء أغلب أصحابها من اعضاء المجمع العلمي العربي ، فانصرفت إلى نظم قصيدة في الموضوع المطلوب وهو « الجندي في ميدان القتال » وحرصت على أن أضمن أبياتها تعابير مغرقة في الفصاحة المعجمية وكلمات ترضي المجمعيين . وحقاً لقد فازت القصيدة بالجائزة الأولى ، وأذاعتها بعد محطة دمشق محطة اذاعة لندن . وحين يروي الاستاذ سعيد الجزائري هذه القصة الآن يزعم بأني لم أكن مسروراً بنشر خبر فوزي بالجائزة الأولى في الصحف وهو النشر الذي تولاه الاستاذ سعيد في حينه ، وأني لمته على ذلك لأن ذلك عرّف أهلي أني فزت بمبلغ لا بأس به من المال فأدى ذلك إلى انقاص مرتبي الذي كان يرسل إليّ كطالب ، فعدت من فوزي بالجائزة بالخسران المادي . . .

« ٦ – الكتب التي ألفت »

لي من الكتب المطبوعة :

١ – بنت الساحرة	مجموعة قصص نشرت عام ١٩٤٨ بيروت
٢ – الليالي والنجوم	مجموعة شعرية نشرت عام ١٩٥١ بيروت

٣ — ساعة الملازم مجموعة قصص نشرت عام ١٩٥١ بيروت
٤ — حكايات من الرحلات نشرت عام ١٩٥٤ القاهرة
٥ — قناديل اشبيلية مجموعة قصص نشرت عام ١٩٥٦ بيروت
٦ — باسمة بين الدموع رواية نشرت عام ١٩٥٩ بيروت
٧ — الحب والنفس مجموعة قصص نشرت عام ١٩٥٩ بيروت
٨ — رصيف العذراء السوداء قصة طويلة نشرت عام ١٩٦٠ بيروت
٩ — الخائن مجموعة قصص نشرت عام ١٩٦٠ بيروت
١٠ — المقامات نشرت عام ١٩٦٣ دمشق
١١ — دعوة إلى السفر نشرت عام ١٩٦٣ بيروت
١٢ — الخيل والنساء مجموعة قصص نشرت عام ١٩٦٥ بيروت

ولي تحت الطبع كتاب جديد هو مجموعة من المحاضرات واسمه « أحاديث العشيات » . تتولى نشره في دمشق وزارة الثقافة والارشاد القومي . (٢)

« ٧ — الوظائف التي مررت بها »

لم انتسب إلى وظيفة من وظائف الدولة . ولكني عملت في الحقل العام كسياسي . مثلت الرقة كنائب في مجلس عام ١٩٤٧ الذي قام في أيامه انقلاب حسني الزعيم . وتوليت الوزارة في عام ١٩٦٢ بين نيسان وأيلول من ذلك العام ، في وزارة الثقافة ووزارة الخارجية ووزارة الاعلام .

« ٨ — ذكرياتك السياسية وابرزها »

لعل اهم ذكرياتي السياسية تنتسب إلى المشاركة التي أتيحت لي في معركة فلسطين في عام ١٩٤٨ . ففي أوائل ذلك العام تطوعت . وأنا نائب ، في حملة جيش الانقاذ.وهي الحملة التي كان مقرراً لها أن تدخل فلسطين قبل ان يصبح قرار التقسيم نافذ المفعول في ١٥ أيار ١٩٤٨ ، لتنقذ فلسطين وتعيدها إلى أهلها وتطرد اليهود من أرضها قبل أن يصبح لليهود كيان شرعي دولي . وكان جيش الانقاذ بقيادة فوزي القاوقجي إلا أن الطليعة

(٢) يرجع الى آخر الكتاب لمعرفة الكتب التي صدرت للمؤلف بعد ظهور الطبعة الاولى من « أشياء شخصية » .

الاولى التي دخلت فلسطين من هذا الجيش كانت بقيادة أديب الشيشكلي وباسم فوج اليرموك الثاني . وقد أتاح لي تطوعي بهذه الحملة تجربة فذة ومعرفة غنية سواء من الناحية الشخصية او الناحية العامة . لقد اكتشفت من خلال الفترة التي قضيتها في فلسطين وفي ميدان المعارك، إذا صحّ لي أن اسميه هكذا ، اشياء كثيرة عن سير امورنا ، وعن خصائص شعبنا ، وعن أقدار رجالنا . ومن سوء الحظ أن تجربتي قد تكشفت لي عما خيّب امل الشاب المثالي الذي كنته . ومن سوء الحظ كذلك أن سير أمورنا القومية منذ عام ١٩٤٨ حتى اليوم جاء مؤيداً لتقديراتي السيئة عن وضعنا وامكانياتنا، تلك التقديرات التي وضعتها لنفسي في ذلك الحين . . .

هجرت السياسة ، كممارسة فعلية ، بعد تلك الفترة وأنا سيىء الظن بمقدار ما يمكن للمرء الصالح أن يجنيه منها للنفع العام ، وان كنت لم أهجرها كمراقب ومتتبع ومفكر وكاتب . وفي الظروف الخاصة التي مرت بسورية بعد الانفصال وسلسلة الانقلابات التي تلته عدت إلى السياسة وزيراً في احدى الفترات الحرجة في تاريخنا الحاضر . وقد كانت لي ذكريات في هذه الفترة هي من الجدّة بحيث يعسر التحدث فيها الآن . ولا شك في أني أجد نفسي راضياً عن نفسي في هذه الفترة أكثر من رضاي عنها في ممارستي الأولى عام ١٩٤٧ ، لاني كنت أكثر ايجابية وفعالية في الفترة الأخيرة مني في الفترة الأولى . غير أن طعم المرارة في العمل السياسي أقوى من أن تزيله افعال ذوي الأرادة الخيّرة مهما كانوا عليه من المقدرة والاصرار. وإذا كانت لي من ذكريات مرضية في فترة عملي السياسي فهي ذكريات لاتمتّ إلى السياسة بصلة ، فترات انسانية أو عاطفية ، لا استطيع أن اعلنها على الملأ لأن قليلا من الناس يصدق أنها أجمل ما بقي في نفسي من فترات النفوذ والسلطان ، أو أن الذين يصدقون لا يفهمون معنى هذه الذكريات الضئيلة في مبناها ، المترفة في معناها .

« ٩ — ١٠ — ذكرياتك مع الادباء السوريين واللبنانيين — ذكرياتك مع الادباء العرب »

قد تكون صفتي الأدبية عند اكثر الناس هي اشهر الصفات التي اعرف بها . ولكني لم أتعمّد ، ولا أريد ، أن تكون هي الصفة الغالبة عليّ . بل اني أحاول دوماً أن أكون أديباً على الورق فقط . بمعنى أن تكون صلتي مع القراء ومع الأدباء الآخرين صلة قراءة وكتابة . لا صلة شخصية . ولذا فان علاقاتي بالأدباء وذكرياتي معهم ليست من القوة والغزارة بالقدر الذي يجعلها تختلف عن علاقاتي مع الناس الآخرين . واغلب من ارتبط معهم بصداقة من الادباء هم أناس جمعت بيني وبينهم ظروف خاصة أو علاقات انسانية قليلا ما تكون أدبية. لقد اعتذرت عن عدم حضور كل المؤتمرات الادبية التي دعيت إليها ، ولم أبحث في رحلة من رحلاتي عن أديب معين أو أسعى للقائه ، سواء كان في البلاد العربية أو البلاد الأجنبية ، هذا مع ميلي للتعرف على النماذج الانسانية المختلفة .كثيراً ما كنت ارتبط في رحلاتي بمتشرد أو بفنان مغمور أو بفتاة غريبة الطباع والسلوك واسعى للتعرف على كل نواحي حياته أو حياتها . ولكن الاشخاص المشهورين. ثابتي القدم في فهم ولو كانوا أدباء كباراً ، لم يكونوا يثيرون فيّ الفضول الذي يدعوني للسعي وراء معرفتهم . استثني من ذلك مرة أذكرها : فحين كنت طالباً في الجامعة قمت مع فريق من الطلاب برحلة إلى مصر . وكان أدباء مصر في تلك الايام ملء القلب والخاطر ، فاتصلت هاتفياً بالاستاذ محمود برر طالباً التعرف به والسماح لي بزيارته مع أحد الرفاق . وقد كان من الكرم واللطف بحيث دعاني ورفيقي إلى امسية في داره دعا فيها بعض الادباء المعروفين أذكر منهم الاستاذ عبد الرحمن الخميسي والاستاذ عبد الرحمن صدقي والمرحوم الدكتور بشر فارس . ودارت بيننا أحاديث كثيرة ومفيدة ، غير أنها مع الأسف لم يكن لها غد .

وهذا لا يعني أن معارفي من الأدباء ، في سوريه ولبنان بصورة خاصة ،

قليلون . ولكن ارتباطي بهم هو على الصعيد الانساني أكثر منه على الصعيد الأدبي . أضرب لذلك مثالاً : في عام ١٩٤٨ كنا نجتمع نفراً من الشباب بين صحافي وكاتب وشاعر . في مقهى البرازيل وفي إدارات الصحف والمجلات ، ففكرنا بانشاء جمعية تضم أسماءنا وتعرف بانتسابنا اليها . وقد اقترحت اسماء عدة لهذه الجمعية ، كلها يمت إلى الادب او إلى الثقافة بصلة ، ولكني اقترحت ، واصررت ، ان تسمى بأسم غير ادبي : « عصبة الساخرين ». وهكذا وجدت هذه العصبة التي ضمت اثني عشر عضواً وأثارت في وقتها بعض الضجة وأعطت بعض النتاج . أريد أن أشير بهذا إلى أن الأدب عندي هو صفة وأسلوب في الحياة وليس هدفاً أو غاية محدّدة . فما كان يربطني بأعضاء العصبة ويهمني منهم هو كونهم « ساخرين». وأما الأدب فهو الاسلوب الذي يعبرون به عن سخريتهم . ولعلّي لم أكن ارتبط بهم لو كانوا ادباء كباراً ولكنهم كانوا ثقال الدم غلاظ الطبع .

أما عن الذكريات مع الأدباء . سوريين ولبنانيين ، فهي كثيرة لا يمكن تعدادها ولا يسهل بغير المناسبات التي تعيدها إلى الخاطر . وذكرياتي مع الأدباء العرب في غير سورية ولبنان قليلة لقلة معارفي منهم . إن لي ذكريات كثيرة مع الدكتور عبد الرحمن بدوي صاحب المؤلفات الفلسفية والأدبية الكثيرة ، ولكنها ليست ذكريات أدب بل ذكريات رحلات . فقد كنت التقي به كل عام تقريباً في أوروبا ، في باريس ومدريد وسويسرا ، ومرة في القاهرة ، عدا عن لقاءاتنا في سورية . وهذه الذكريات يسأل عنها الاستاذ يونس بحري الذي كان يصدر جريدة « العرب » في باريس ويستضيفنا في دارها ، أو يسأل عنها الاستاذ أديب مروّة والاستاذ احمد عويدات اللذان كثيراً ما كانا من شهود تلك الذكريات .

ترد إلى خاطري الآن ذكرى لقاء لي مع أحمد رامي منذ أكثر من عشرين عاماً . كان ذلك في تلك الرحلة التي نوهت عنها فيما سبق إلى مصر حين كنا طلاباً في الجامعة . في تلك الرحلة أتيح لي ولبعض زملائي من طلاب جامعة

دمشق أن نحضر حفلة أم كلثوم السنوية التي أقيمت في قاعة يورك أو مسرح الازبكية . أو اليسيه فرانسيه؟لا أذكر على التحقيق . وبين وصلتي الغناء قام أحمد رامي الذي كنا نجلس في الصف الذي وراءه . قام يتطوح وقد أخذته النشوة . فالتففنا نحن الطلاب السوريين حوله وعرفناه بأنفسنا . قال : أنا زعلان منكم . قلنا له : لماذا ؟ قال : تزورون دار الكتب المصرية وأنا بواب فيها منذ عشرين عاماً ولا تزوروني ؟ (وكان الاستاذ رامي في تلك الاثناء موظفاً بدار الكتب المصرية ، وكانت الأيام أيام حرب ، وقد قهر الألمان بعد معركة العلمين) . فابتدرته أنا قائلا : ليس الذنب ذنبنا يا استاذ . لقد قيل لنا أن كل التحف الثمينة قد نقلت إلى جبل المقطّم خوفاً عليها من غارات الالمان فظنناك من بينها ! فضحك رامي حينذاك وأخذ يضرب على كتفي ويقول : أهو ده الكلام !

« ١١ – رحلاتك والبلاد التي زرت واجمل ذكرياتك فيها »

رحلاتي كثيرة وقد تحدثت عنها في كتابين : «حكايات من الرحلات» ، و« دعوة إلى السفر» ، وفي العديد من المقالات والقصص والمحاضرات التي ضمنتها ذكرياتي او استوحيتها منها . ولازال هنالك الشيء الكثير الذي يقال ولم أقله . وقد زرت أوروبا من فنلندا والسويد في الشمال حتى اسبانيا والبرتغال في الجنوب وزرت ما بين البحر الأسود وانكلترا . وبعض هذه البلاد زرتها مراراً عديدة .كما زرت من البلاد العربية ، عدا سورية ولبنان ، العراق والكويت والاردن ومصر والمغرب . وزرت في امريكا الجنوبية البرازيل والارجنتين ، والولايات المتحدة الامريكية في امريكا الشمالية[٢] .وأول رحلة لي إلى الغرب كانت عام ١٩٥١ ، وقد اقمت خلالها في باريس نحوا من ستة أشهر حببت إليّ هذه المدينة الآسرة بكل ما فيها من غنى فني وثقافي ومن اسلوب للحياة فريد . ثم دأبت على أن أزور أوربا في كل صيف ، وفي ثلاث من رحلاتي استصحبت سيارتي فكان تطوافي بها طريقة رائعة للتعرف على البلاد والناس .

(٢) يضاف الى هذه البلدان ما زرته بعد صدور الطبعة الاولى ، السعودية وتونس من البلاد العربية وايران ، وعددا من بلدان الشرق الاقصى بين الهند واليابان .

اما ذكرياتي عن الرحلات فاني أجد من العسير تعيين أيها أجمل . كل الذكريات جميلة . ولا سيما حينما يبعد بها الزمن فيدوّر زواياها ويستلب من احداثها المرارة ولا يبقى منها غير الحلاوة . وكثيراً ما تثب إلى خاطري ذكرى حادث كان كامناً في اعماق وجداني ثم هاجه في النفس توارد خواطر أو تداعي افكار . فأراه في ساعتها أجمل ما مرّ في فترة من حياتي . ولا بد من القول بأن محور الذكريات الجميلة في أوروبا هو المرأة . فالمرأة رفيقة الرجل التي بدونها لا تكمل معرفته ولاتتم متعته . ففي أوروبا . بالنسبة للزائر أو السائح غير المقيم . لا يستطيع الرجل أن يحصل من الرجل مثله على معرفة وثيقة أو ارتباط غير ارتباط المصلحة الوقتية . وإذا كنت محباً لمعرفة النفس الانسانية في اعماقها فانك لا تجد غير المرأة من يستطيع أن يطلعك على ما تريد . وإذا كنت أنا قد عرفت شيئاً عن نفس الرجل الاوروبي فهو ما عرفتني عنه المرأة الاوربية من التكوين الروحي لزوجها أو عشيقها أو صديقها . كما أن متعة الرجل بالثروة الفنية والحضارية للعالم الغربي تكون أكمل في صحبة المرأة منها بدونها . فالانسان ميّال إلى مشاطرة اعجابه بالأثر الفني انساناً آخر يفهمه ، وليس مثل المرأة مشاطراً للرجل في هذه الأمور ... ليس كل النساء بالطبع . ولكن المرأة التي تكون من طبقتك ثقافة أو استعداداً ذوقياً . وهكذا فان زيارة متحف أو حضور مسرحية أو سماع حفلة موسيقية ، أو زيارة لقصر تاريخي أو صعود قمة جبل مشرف على مناظر خلابة ، كلها تكون في صحبة المرأة غيرها بدونها . دعك من ارتباطات العاطفة وصلات القلب والشعور .

« ١٢ – لا شك انك قابلت أدباء عالميين من هم ... وماذا كانت أحاديثهم؟ »

راجع في هذا ما قلته في (٩ – ١٠) . لم تجمعني الظروف بأحد من هؤلاء على ما أذكر . بل اني أذكر أني تجنبت متعمداً المناسبة التي أتيح لي فيها التعرف بكبار أدباء العالم في احد الأعوام . ففي عام ١٩٥٥ ، على ما أعتقد . عقدت في ستوكهولم دورة استثنائية لمؤتمر السلام العالمي دعي اليها

من كل بلدٍ إثنان من كبار مفكريها . وكان من جملة المدعوين برتراند رسل وجان بول سارتر وغيرهما . وقد دعيت أنا إلى هذه الدورة . ولكني اعتذرت مع معرفتي بقيمة المدعوين اليها . وقد كان اعتذاري لسوء ظني بهذه المؤتمرات الموجهة مهما كانت غايتها نبيلة ، ولخطتي الشخصية في عدم حضور المؤتمرات بصورة عامة .

كنت في ذات مرة على رصيف مقهى « دو ماغو » في حيّ سان جرمان دو بريه في باريس . وكانت بجانبي سيدة جميلة . نصف في عمرها . بادلتها الحديث لا أدري بأية مناسبة . وقد جرنا الحديث إلى الروح العربية في الحضارة والفن وأذكر اني حدثتها عن رسالة عمر بن عبد العزيز إلى والي حمص الذي طلب منه أن يسمح له ببناء سور للمدينة يقيها هجمات العدو فكان جواب عمر له : حصّن مدينتك بالعدل ! وقد اعجبت السيدة بهذه الجملة وشكرتني على حديثي الذي بادلتها إياه قبل ان تنصرف معتذرة بموعد .وحين أرى الآن صور سيمون دو بوفوار أجد ان تلك السيدة التي حادثتني وناقشتني طويلاً لم تكن إلا هي . لا سيما حين أذكر أن المقهى الذي كنا نجلس فيه كان على قيد خطوات من منزل سارتر ومن منزلها ، وانها كانت هي وسارتر من المترددين على مقهى الفلور والدوماغو بجانبه .

ولا زلت أذكر شاباً مغموراً . يعمل محرراً صحفياً لاحدى المجلات الفنية، لقيته في منزل صديق لي ممثل في باريس . بعد ان تعارفنا أنا وذلك الشاعر وعلم أني عربي ، وكانت الثورة الجزائرية في تلك الاحيان في شدتها ، قال لي : اتعلم اني اتمنى أن أعرف من اللغة العربية كلمة واحدة لاكتبها بحروف واضحة على صدري ؟ قلت له ما هي هذه الكلمة ؟ قال : أنا معكم ! Je suis avec vous يعني أنه يريد أن يتحدى بها فرنسيي بلاده ، حكومة واستعماريين ورجعيين، باعلانه أنه مع العرب . لقد اهداني هذا الشاعر ، واسمه روبير أدوار ، ديوانه وعنوانه «قصائد السبت» ، وأنا أحتفظ بهذا الديوان ذكرى لهذه الكلمة الجميلة التي قالها بكل حماسة واخلاص .

« ١٣ – أهم حدث في حياتك »

– يبدو لي أن أهم حدث في حياتي هو زواجي . فقد غيّر من سلوكي في كثير من نواحي الحياة وساقني في مناهج ما كنت انتهجها لولاه ، سواء في مسلكي اليومي أو في طريقة نظري للمجتمع أو المستقبل . وبالزواج علمت أني رجل من غمار الناس ، أعني أني فرد من جماعة يسري علي ما يسري عليهم مهما تصورت أن لي فرديتي واستقلالي . وهذه هي إحدى حقائق الحياة التي قد تكون مرّة ، والتي نظل غافلين أو متغافلين عنها حتى نرتبط بالمجتمع بروابط الاسرة .

« ١٤ – اسوأ حدث في حياتك »

– لا استطيع أن أركّز على حدث معين بأن أصفه أنه أسوأ حدث في حياتي. بل يخيّل إلي أن الاحداث السيئة في حياتي قليلة . بدهي أنه ما من حيّ إلا وتعرض في حياته للفشل مرة أو مرات ، ولفقد الاعزاء ، ولخيبة الأمل ، وأنا واحد من هؤلاء . ولكني حين أعود إلى ما مرّ بي في أيامي المنصرمة أجد أن كثيراً من الأحداث السيئة خفف من وقعها عليّ تفكيري بأن تجنبها كان فوق طاقتي البشرية . كما ان احداثاً سيئة أخرى خرجت منها إما بحسن حظي أو بحسن تصرفي ، بنتائج خيّرة . لقد فشلت مرة في إحدى الحملات الانتخابية لمجلس النواب ، ولا بد ان كثيرين رأوا في ذلك حادثاً سيئاً وكثير السوء بالنسبة لي كشخص مهيّأ إلى أن يكون له مستقبل سياسي مرموق . أما في نظرتي الشخصية .. فلم يكن هذا الفشل من السوء بالمقدار الذي يظنه الآخرون . فقد كان اولاً تصديقاً لآرائي الشخصية في الحالة السياسية لبلدنا والحالة النفسية لشعبنا . وكان تحقيقاً لرغبتي في الابتعاد عن السياسة بعد تجربتي القصيرة فيها ، وان كان تحقيقاً سلبياً لأنه جاء عن طريق الفشل . وكان ثالثاً بداية لانطلاقي في عملي الطبي الذي مارسته بالشكل الذي أرضى ضميري كما أنه أتاح لي كفاية مادية سمحت لي بتحقيق كثير من متطلباتي ورغباتي في الحياة، ومن أهمها الرحلات .

ومثال آخر على الاحداث السيئة في حياتي ، حادث وفاة والدي منذ عامين الذي ألقى على عاتقي عبئاً كبيراً من الناحية المادية هو عبء ممارسة أعمال اسرتنا واستغلال مواردها ، وهو أمر كنت قليل المقاربة له ، ومن الناحيـــة المعنوية عبء العلاقات الاجتماعية في بيئة مثل البيئة التي أعيش فيها وكان والدي بمنصب العميد فيها . قلت أن هذا حادث سيء ولكن تأثيره على النفس كان يتحدد وينتهي إلى نهاية معقولة حين كنت أفكر بأن الموت هو غاية كل حيّ ، وأن موت انسان في الخامسة والسبعين من العمر شيء من أكثر الأمور طبيعية .وأن هذه الأعباء التي ألقيت عليّ بهذا الحادث هي أعباء واجب حملها ولا مجال للتذمر منها ولا لاعتبارها نتيجةِ لحدث سيء ، بل هي نتيجة طبيعية لحادث طبيعي .

« ١٥ – رأيك في القصة القصيرة العربية ومن هم برأيك أبرز كتاب القصة »

القصة في العالم كله هي وسيلة التعبير الحديثة لكل مرامي الأدب . ففيهـا أصبح الشاعر يصوغ شعره والمفكر يضع افكاره والفيلسوف يعبر عن آرائه . وقد لحق الأدب العربي بآداب الأمم الأخرى فاتخذ من القصة وسيلته العصرية للتعبير بعد ان كان مدة طويلة متخذاً الشعر كوسيلة للتعبير ثم اتخذ المقال وسيلة أخرى في فترة من فترات تطوره . وحين اتكلم عن القصة فأنا أعني القصة الطويلة والقصيرة معاً ، أعني الرواية والاقصوصة . ويبدو أن آداب الأمم الأخرى ، الأمم الغربية التي نحذو حذو ادبها بصورة خاصة . أكثر احتفالاً بالرواية منها بالاقصوصة . أما الأدب العربي فان نتاجه من القصة القصيرة متفوق من حيث الكمية على نتاجه من الرواية . ومع ذلك فأني أفتقد النضج في غالب ما يكتبه القصاصون العرب من القصص . لماذا ؟ في اعتقادي أن ذلك ناجم عن ان قصتنا القصيرة هي قصة مراهقة ، من الناحية الفنية . ولأوضح ذلك أقول أن الأديب يبدأ معاناته الأدبية في كتابة القصة القصيرة لاسباب كثيرة منها أن ظروف النشر التي تتركز في المجلات والجرائد لا تسمح إلا بحيز ضيق لنشر انتاج المبتدئين ، ومنها ظن الأديب ، أو من يريد

أن يكون أديباً . آن كتابة القصة القصيرة أمر سهل ـ وهذا بالطبع ليس صحيحاً. وعلى كل فان الاديب يبدأ بالقصة القصيرة وربما سلخ سنين عديدة في محاولات كتابتها حتى إذا اتقنها أو كاد بلغ من السن المبلغ الذي يجعله في مواجهة الحياة ومتطلباتها المادية ، وبما ان الادب ـ ولا سيما القصة التي تحتاج إلى وقت طويل لاتقانها ووقت طويل لانتاجها ـ لا يطعم خبزاً فاننا لا نلبث حتى نجد الأديب الذي نضج أو كاد قد انصرف عن الأدب وعن القصة إلى سبل أخرى من سبل الحياة أجدر بأن تضمن عيشه . وهكذا يخلو الميدان من القصاص الناضج ليحتله قاص متدرب ؛ شاب ناشيء استهواه الأدب فبدأ بكتابة القصة القصيرة ولكن لا تزال أمامه سنوات ليتقن كتابتها ... وهكذا تظل قصتنا قصة مراهقة فنية ، فوق الطفولة ، ودون النضج والاكتمال . أنك قلّ أن تجد قاصاً استمر في كتابة القصة القصيرة بعد ان تجاوز الخامسة والأربعين . إذا استمر القاص في معاناة الادب بعد هذه السن فانك تجده تحول إلى كاتب مقالات أو رئيساً لتحرير إحدى المجلات أو مديراً لاحدى دوائر الدولة التي قد تمت أو لا تمت إلى الادب بصلة .

أما عن أبرز كتاب القصة فان رأيي لا يمكن أن يكون حجة في هذا الموضوع . ففي السنين الأخيرة كثرت المجلات والصحف الأدبية وغير الأدبية في انحاء العالم العربي وكثر القصاصون بحيث أصبح من الصعب الاحاطة بكل ما يكتب في القصة واعطاء حكم فيها وفي كتابها . وبالرغم من أني كاتب قصة ، أو لعل السبب هو كوني كاتب قصة ، فان قراءاتي في القصة أصبحت قليلة . وبين الذين قرأت لهم واستهووني يوسف أدريس وغسان كنفاني وسليمان فياض وجورج سالم ووليد اخلاصي . ومن بين الذين أحب أن أقرأ قصصهم القصيرة حسيب كيالي لولا أنه دخل في الزمرة التي هجرت القصة أو كادت حين تجاوز افرادها الاربعين . وكما قلت ، ان احكامي هنا ليست مطلقة ، فبعض من سميت لم أقرأ لهم إلا قصصاً قليلة ربما لا تمثل كل ما يكتبون كما أنه لا شك في وجود قصاصين جديرين بالتنويه بهم لو أنه أتيح لي أن أقرأهم .

« ١٦ – ماذا تريد الآن .. وماذا تعد للنشر .. وبماذا تفكر ؟ »

– ماذا – اريد من الناحية الادبية طبعاً ؟ إن الأدب ليس إلا هواية لي من ضمن مجموعة من الهوايات ، وان كان هواية ثمينة وسامية . لذا فاني لا أحسب أني ارضى عن نفسي لو أنه أخذ من وقتي ، أو أني اعطيته من وقتي أكثر مما أنا فاعل . على الرغم من شعوري بأن هناك اشياء كثيرة أحب ان انتجها فيه ويضيق عنها وقتي .

وأنا أعد للنشر الآن كتابي – أحاديث العشيات – الذي تتولى طبعه وزارة الثقافة والارشاد القومي في سورية . وهذا الكتاب هو مجموعة من الاحاديث، اخترتها بين المحاضرات التي القيتها أو اعددتها لتلقى في السنين الفائتة . وقد عهدت بنشر هذه المقالات لوزارة الثقافة لأنه طلب إليّ ان تنشر لي الوزارة أحد كتبي فوجدت أن هذه الاحاديث هي أنسب ما يمكن أن تنشره مؤسسة رسمية نظراً لأن قصصي واخبار رحلاتي قد تحتوي ما لا يسهل على المؤسسة الرسمية أن تتبناه من أفكار أو أحداث أو اتجاه فكري أو فني .

أما ما أفكر بكتابته وانتاجه فهو كثير . وأنا اتوق دوماً إلى انجاز إحدى الروايات الثلاث التي بدأت بكتابتها منذ أعوام ، أولاها منذ خمسة أعوام وثالثتها منذ عامين . ولكني أتوقع ان يحول بيني وبين انجازها ضيق وقتي وعدم توفر الاستقرار النفسي المتمادي ، الذي يدوم لبضعة أشهر على الأقل، حتى استطيع ان اعيش لنفسي في جو واحد أنجز فيه عملاً أدبياً واحداً . ثم ان الاعمال القصيرة التي تطلب مني وتريد انجازاً عاجلاً ، كمقال ، أو قصة قصيرة ، أو محاضرة ، قادرة دوماً على صرفي عن انجاز هذه الروايات أو احداها ، على الرغم من شوقي الشديد إلى أن أنشر رواية طويلة بعد روايتي الاولى « باسمة بين الدموع » .

٣٠ – ٩ – ١٩٦٥

مذهبي في القصة

حديث أذيع من البرنامج الثاني في اذاعة القاهرة.

كتبت القصة امداً طويلاً دون ان احسب ان لي في كتابتها مذهباً او طريقة خاصة . وحين ادركت ان لي اسلوباً خاصاً في ما اكتبه لم يدر في خلدي ان اتكلم في هذا الاسلوب او ان ابحث فيه متقصياً لميزاته وعناصره . ان البحث عن مذهب الكاتب فيما يكتب امر من وظيفة الناقد ، ومن الصعب على المرء ان يكون ناقد نفسه او ، على الاصح ، ان يكون ناقداً مثالياً ومتجرداً لنفسه . بل اني اعتقد ان تتبع الكاتب، تتبعاً درسياً ، دقائق مذهبه في الكتابة وتحليله دوافعه النفسية قد يكون فيه الضرر على انطلاقه في الكتابة والانتاج ، ذلك الانطلاق الذي كثيراً ما يكون منبعثاً بطريقة عفوية اي بالطريقة التي يسميها الفنّان الهاماً وقد يتجوز فيسميها وحياً . تصوروا انساناً يفكر في الطريقة التي يسير فيها في الشارع على قدميه ، متتبعاً حركات اعضائه عضواً عضواً وعضلات اطرافه عضلة عضلة . لا بد له اذن من التعثر في طريقه وهو يدقق في اي قدم يبدأ بها المشي باليمنى أو اليسرى ، وبأي يد يحركها مرافقاً بها حركة الرجل ، دعكم عن تفكيره بالعضلات التي يحركها واحدة بعد الأخرى للوصول إلى غايته من رفع القدم او تحريك اليد . قد يكون تشبيهي مغرقاً في المغالاة ولكني اعتقد ان الفنان الحق يعطي بعفوية حين يكتب ، وان كثرة تدقيقه في كيفية العطاء والانتاج إذا لم تضع قليلاً بهذه العفوية فهي لا تفيدها كثيراً .

وعلى كل حال فقد طلب إلي ان اتحدث عن مذهبي في كتابة القصة . قبل كل شيء اريد ان أقول ان قصصي التي كتبتها هي التي حددت مذهبي واعطته الشكل الذي تميز به بين مذاهب كتاب القصة، واني لست انا الذي اتخذت مذهباً معيناً من المذاهب القصصية المعروفة فاخترت ان اكتب قصصي ضمن حدوده . اذن فمذهبي مذهب اصيل لم يأت عن تقليد ولا اتباع ، وهذا ما يرضيني عنه ويصل بي إلى حد الفخر به . ولقد سمعت مؤخراً أحد النقاد يقول عني اني اكتب بطريقة شخصية كأني لم اقرأ لاحد من الكتاب الغربيين الكبار او أدر شيئاً عن المذاهب الفنية المعاصرة . وقد قال هذا الناقد قوله كالعائب لي ، ولم يدر أنه زادني به رضى عن نفسي . فأنا في الحقيقة مثل كل محب للادب اقرأ لكثير من الكتاب المعاصرين عرباً واغراباً وأدري دراية لا بأس بها بالمذاهب المعاصرة في الأدب والفن . ولكني مع ذلك احب الابتعاد عن التقليد وعن السلوك في مدرسة خاصة ، وتلك طريقة ارتاح اليها وترضيني مثلما يرضي بعض الكتاب الآخرين ان يقال عنهم انهم مثل فلان من اعلام الأدب أو انهم يتبعون المدرسة الفلانية . يروي ابو نواس انه قبل ان يقول الشعر جاء إلى استاذه . ولعله الاخفش . فاستأذنه في النظم . فقال الاستاذ لن آذن لك حتى تحفظ ستين الف بيت من شعر العرب . فلبث أبو نواس أشهراً حتى اتم حفظ الآلاف المطلوبة من الابيات وجاء استاذه مرة ثانية يستأذنه في النظم فقال الاستاذ : لن آذن لك حتى تنسى كل هذه الاشعار التي حفظتها . قال ابو نواس : ولكن النسيان شيء ليس في الامكان ... قال الاخفش : بل لن آذن لك في نظم الشعر قبل ان تنسى ما حفظته ! فأنصرف أبو نواس إلى الحانات ومرابع اللهو أشهراً حتى ذهب من ذهنه كل ما علق به من تلك الستين الف بيت . حينذاك رضي الاخفش واذن له بأن ينظم الشعر . وتلك في الحقيقة حكاية ترمز إلى الطريقة التي يجب ان يتأثر بها الفنان بفن من سبقه او عاصره ، أو على الأقل تلك هي الطريقة التي تعجبني شخصياً في هذا الصدد . اعني بها ان يتملى الفنان من فن غيره وان يسد على نفسه الطريق إلى تقليده هذا الغير . ولقد آبى على

نفسي احياناً تقليد نفسي فأحاول ان آتي دوماً بالجديد والمبتكر فيما اكتبه . وكنت احسبني بهذا ابتعد بنفسي عن ان يكون لها مذهب معين في الكتابة بالنظر لكثرة التنويع فيما كتبت . إلا اني اليوم حين أعود إلى إنتاجي القصصي ، وقد ظهرت لي حتى الآن عدة مجموعات من القصص القصيرة وقصة طويلة ورواية كبيرة غير ما لم يجمع لي بعد في كتاب ، حين أعود إلى إنتاجي القصصي أجد التنويع ظاهراً فيه حقاً ، ولكني اجد مع التنويع ان ثمة صفات مشتركة بين قصصي تسمها بسمات معينة سواء في الشكل او المضمون . وهذه الصفات المشتركة هي التي اسميها مذهبي في القصة .

ان ابسط اشكال القصة ، من حيث القالب ، هو شكل الحكاية التي ترافق الزمن في تسلسله فتبدأ بولادة البطل فيها وتنتهي بموته . أوعلى الأقل تبدأ بولادة الحادثة وتنتهي بموتها . الزمن في هذا الطراز من القصص اطار تعيش الحادثة وابطالها فيه . إلا انني قلما اكتب قصصاً على شكل الحكاية هذه . فالزمن عندي عامل من عوامل القصة قد اقفز به او اتراجع فيه او اروح به جيئة وذهاباً حتى استطيع ان اعطي للحادثة التي اكتب عنها وقعاً معيناً في نفس القارىء . بل يحدث ان اكتب قصة لا وزن للزمن فيها مذكوراً . فلي قصة اسمها « حمى » مكتوبة بشكل مذكرات لا تؤرخ باليوم الخامس والعاشر والسابع عشر من ايام الشهر مثلاً بل بدرجة حرارة البطل : سبع وثلاثين وثلاث شرطات ... أربعين وست شرطات ... وهلم جرا .. كلما تبدلت حمى البطل تبدلت افكاره والاحداث التي تحيط به . ولي قصص غير هذه لا يدرك فكرتها القارىء إلا بقراءة حوادث متعددة لا رابط زمنياً بينها .. مثل قصتي « القفاز » . وهذا ما يجعل بعض النقاد يرون في بعض قصصي انحرافاً عن الطريق المألوفة للقصة القصيرة التي يجب ان تروي حادثة واحدة في مكان محدد وفي زمن يستحسن ان يكون قصيراً . إلا اني على اهتمامي بحادثة القصة او حوادثها لا أجعل منها دوماً الشيء الرئيسي ، بل اني كثيراً ما احملها غايتي من القصة التي اكتبها سواء اكانت هذه الغاية فكرية علمية او عاطفة انسانية او احساساً شعرياً .

اضرب لذلك مثلاً قصة « الليل في كل مكان » . فهذه قصة ترد في بضع صفحات ولكن مسرحها العالم بكامله ، منذ فرنسا إلى فلسطين إلى الحبشة إلى جنوب افريقيا . لو كانت رواية الحادثة هي الغاية في القصة لشتّت ذهن القارىء في ركضي به بين آفاق العالم المتسع في تلك الصفحات القليلة . ولكن غايتي كانت ان اشعر القارىء بشعور البطلة مارليت وهي تسعى بين أرجاء الدنيا بطفليها باحثة عن مكان لا أثر فيه للحقد والبغض والتهديد بالحرب ، فلا تجد ذلك المكان .. لان الليل في كل مكان . على اني رغم ايثاري تجنب شكل الحكاية البسيط في كتابتي للقصة ، قد اعمد إلى اتخاذ هذا الشكل للقصص التي اعدّها ، لا ليقرأها القارىء في كتاب او في صفحات مجلة ، بل لتتلى على مستمعين لها في الاذاعة او في ناد او حلقة ادبية . لذا فان المثال الذي اقدمه لمستمعي البرنامج الثاني في هذه الامسية سيكون قصة من هذا النوع المعد للتلاوة لا للقراءة .

ثمة صفتان اخريان من صفات الشكل في مذهبي للقصة ؛ هما فصاحة اللغة ثم اللغة العلمية . قد يكون فضولاً من قاص عربي ان يقول انه يكتب قصصه باللغة العربية الفصحى . ولكن هذا الفضول اصبح ضروري الذكر بعد ان بدأت العامية تتسرب إلى إنتاج القاصين الجدد ، تتسرب إلى الحوار في قصصهم وستتسرب ، إذا لم تنحسر موجتها ، إلى الوصف فيها والسرد . حجة من يكتب حواره بالعامية أن عامة الناس تتكلم هكذا في الحياة . لو كان على الكاتب ان يتبع الحياة بحذافيرها لكان عليه ان لا يكتب قصة متخيلة ابداً ، لانها لم تقع حقاً ، ولا ان يترجم قصة اجنبية إلى العربية لان حوار القصة الاجنبية يجري في الحياة بلغة اجنبية . ولو كان عليّ شخصياً ان اتبع الحياة بحذافيرها ، في كتابة الحوار في قصصي على الأقل ، لما فهم أحد ما اكتبه . لأن كثيراً من أبطال قصصي يعيشون في بادية الفرات او في مدينة الرقة التي هي مدينتي ... واللغة العامية في هذه المدينة وتلك البادية لا يفهمها قاهري او دمشقي أو بغدادي ، دعك عن المراكشي او السوداني . ولكني اكتب حوار أبطالي بعربية فصيحة يفهم إنتاجي الأدبي فيها كل العرب فلا تضيع عليهم فيه لذّتهم وتتعزز بالتقاء افكارهم حوله وحدتهم .

أما اللغة العلمية التي كثيراً ما تظهر في تعابيري فهي بعض مخلفات الوسط العلمي الذي نشأت له محباً والذي لا زلت اعيش فيه طبيباً تستهويني العلوم الموضوعية على اختلافها . كثيراً ما يقول النقاد ان استعمالي تعابير هندسية أو كيميائية او فيزيائية يخرج بي عن الأسلوب المألوف لكتاب القصة . ولكن ما يسمونه هم مألوفاً اسميه أنا مبتذلاً ، والخروج عن الابتذال لا يخيفني . بل اني أجد ان استعمال الالفاظ العلمية يزيد اللغة العربية المتداولة ثروة في المفردات وغنى في التعبير . وتلك خدمة لا أتردد عن المساهمة في اسدائها إلى لغة وطني وقومي .

تلك هي بعض صفات الشكل في مذهبي القصصي . أما صفات المضمون ، فالتنويع الذي أشرت اليه في مستهل كلامي ، من ابرزها . والتنويع فيما اكتبه ليس مفتعلاً . فأنا اغرف من منابع كثيرة في الحياة كان من نعمة الله عليّ ان يسرّ لي ورودها . فقد نشأت في جو البادية الغنية في احاسيسها والغريبة في تقاليدها . وعشت في أجواء المدينة المعقدة الحياة المزدحمة المرافق . ودرست العلم وهويت الأدب . كما أني مارست السياسة سلماً وحرباً ، وتنقلت في ارجاء العالم الواسعة . فتوفر لي من كل ذلك ذخيرة من التجارب والذكريات والافكار وتفتح به من آفاق الخيال ما اعانني على كتابة قصص متباعدة المرامي والامكنة والمواضيع . وانا أحرص في هذا التنويع على صفة الغرابة والتشويق فيما اكتبه ، غرابة الحادثة أو غرابة النتيجة التي تنتهي اليها الحادثة ، أو غرابة الفكرة التي تستنتج من الحادثة . على أن الغرابة ليست في الواقع إلا عنصراً واحداً من عناصر مذهبي في القصة . وقد غبرت زمناً أحسب انها غايتي من كتابة القصة حتى اكتشفت انها مطية لابراز فكرة معينة لي في كل قصة اكتبها ، وان افكار كل تلك القصص تنتهي إلى فكرة واحدة شاملة هي وراء كل انتاجي القصصي على اختلاف مفرداته .

كتبت قصصاً كثيرة تدور حوادثها في جو طبي وتصف الصراع بين الطبيب ، بين الانسان المسلح بسلاح العلم الحديث ، وبين المرض بملايين عوامله المعروفة

والمجهولة . وعلى رغم ايماني بالعلم وبمعطياته الخيّرة وبضرورته اللازمة لمجتمع كمجتمعنا العربي في ايامنا الحاضرة . كنت اجعل الغلبة في قصصي للمجهول على المعلوم وأضع الطبيب او العالم موضع القلق الحائر او المغلوب الضائع . وكتبت قصصاً إنسانية ، الناس فيها خيرون يبذلون كل مجهودهم لبلوغ طمأنينة النفس . ولكن العالم المحيط بهم يتغلب عليهم وينتهي بمجهودهم إلى العدم.وكتبت قصصاً قومية يحارب شخوصها من أجل مثلهم العليا،وهي مثلي أنا الشخصية ، بكل قواهم .. ولكنهم لا يبلغون غاياتهم .فابطال تلك القصص منكوبون دوماً ، او مقتولون . على حبي لهم وتمجيدي اياهم . يكاد التشاؤم ان يكون هو الفكرة المهيمنة على قصصي لولا ان صفة مشتركة بين ابطالها ترفعهم إلى اعلى من مرتبة التفاؤل ، هذه الصفة هي لا مبالاتهم بما يصيبهم ما داموا جادين في كفاحهم . هي كبرياؤهم التي لا يؤثر فيها الفشل ولا الموت. انهم يعرفون ان الظروف المحيطة بهم والطبيعة التي يعيشون في حضنها والوجود الذي هم منه أقوى منهم. ولكن ذلك لا يخيفهم ، فهم يتحدون كل تلك العوامل بالجهاد في سبيل غاياتهم المثلى . هذه هي الفكرة الشاملة التي ينبعث منها موقفي كأديب في الحياة . فأنا كأنسان مؤمن بانسانيتي من ناحية وبعقلي ومعطياته العلمية من ناحية ثانية ، حائر بين أمرين أو على الاصح مدرك لأمرين : الأول هو ضآلة شأني كمخلوق بشري في الوجود . فالمخلوق البشري ليس إلا ذرة على كوكب هو تابع لشمس تابعة لمجموعة سديمية نعلم بعقلنا القاصر ان الكون المدرك من قبلنا يحتوي ملايين من امثالها . والأمر الثاني هو كبريائي كانسان ، وهي كبرياء تدفعني إلى الكفاح وبذل كل جهد في سبيل غايات سامية معينة ... فاذا غلبتني القوى المتألبة عليّ فأنها لا تكون قد غلبت جباناً مستسلماً بل مكافحاً مناضلاً . من تصارع هاتين الحقيقتين . ضآلة شأن الانسان وكبريائه المكافحة ، يتألف موقف ابطال قصصي المتميز وبه تتوضح ارسخ معالم مذهبي في كتابة القصة .

موقف الصراع هذا الذي يقفه الانسان ، ليس انساني فحسب بل كل

انسان . عبرت انا عنه في قصصي بأساليب مختلفة قد تبدو احياناً شديدة التباين . إلا اني قليلاً ما سلكت في تعبيري عنه سبيل العنف . كتبت القصة الساخرة والقصة الضاحكة . وكتبت القصة الحزينة ولكن حزناً هادئاً فيه فيه الاسى وليس فيه الصخب او العويل . فكأن الوجود عندي ، على غلبته للانسان . مدرك لضعفه ونبله فهو مكبر له ورفيق به . او كأن الانسان على وثوقه بنفسه وايمانه بسلامة موقفه مدرك لدوافع غريمه فهو لا يحمل له في قلبه ضغينة ولا حقداً . هل تريدون مثالاً على ذلك ؟.. اتلو عليكم كمثال قصة الكمأة والكينين ، وفيها نجد الطبيب العالم في محاربته لشعوذات احد الجهلة يرفض الانتصار الذي يصبح دانياً منه ، لانه يدرك ان الحياة قد اتخذت الجاهل مطية لغرضها الذي قد يكون اسمى واصدق من الحقيقة العلمية التي من اجلها يجاهد ذلك الطبيب .

١٩٦١

الكرامة الانسانية

كلمة القيت في الاحتفال الذي اقامته رابطة الدفاع عن حقوق الانسان على مدرج جامعة دمشق ، مساء يوم الاثنين في ١٤ كانون الاول عام ١٩٦٤ ، بمناسبة الذكرى السادسة عشرة للاعلان العالمي لحقوق الانسان.

ان البديهيات هي منطلق النظريات التي تستنتج منها او تبنى عليها المبادىء والقوانين . والاعلان العالمي لحقوق الانسان الذي نحتفل اليوم بذكراه السادسة عشرة قانون اساسي مبني على نظريات بديهيتها هي الكرامة الانسانية . بدون هذه البديهية تصبح المواد الثلاثون لحقوق الانسان غير ذات موضوع ، وبها يتوضح منطوق هذه المواد ويتأكد ، ويأخذ كل معناه في ماضي البشرية وفي مستقبلها . ولأن الكرامة الانسانية هي البديهية الأساسية في هذا الموضوع ، فأننا لا نجدها في مواد الاعلان إلا عرضاً ، بينما نجد النص عليها في الديباجة نصاً حاسماً ، مؤكداً ومتيناً ، كأنه حجر الاساس الراسخ ، حين يبدأ الاعلان بهذه الفقرة .

« لما كان الاعتراف بالكرامة المتأصلة في جميع أعضاء الأسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية الثابتة هي أساس الحرية والعدل والسلام في العالم ... الخ . »

ان الكوارث البشرية في ماضيها ومصائبها في حاضرها ، تلك الناجمة عن ظلم الانسان للانسان وظلم المجموعات البشرية للمجموعات البشرية ، هي

في الظاهر خرق لمنطوق مواد الاعلان العالمي لحقوق الانسان ، قبل النص وبعده ، أما في الباطن والحقيقة ، فأنها أصبحت كوارث ومصائب لتجاهل البشر ، افراداً ومجموعات . او لانكارهم او تحطيمهم لهذه البديهية الأولى : الكرامة الانسانية . وللسائل ان يسأل : او تنكر البديهية وتتجاهل ؟ أقول نعم ، كما يضع المبصر على عينيه عصابة تحجب عنها نور الشمس ويسير متخبطاً في ظلام دامس يصنعه هو بنفسه لنفسه .

وانكار الكرامة الانسانية هي محاولة لتجريد الانسان منها . ولكن من هو الذي يتعرض لذلك التجريد : أهو الظالم أم المظلوم، المضطهد ام المضطهد ، المستغِل ام المستغَل ؟ لنجيب على هذا السؤال مالنا الا ان نأخذ مثالاً منطوق احدى مواد الاعلان العالمي لحقوق الانسان. تقول المادة الخامسة منه: « لا يعرّض إي انسان للتعذيب ولا للعقوبات او المعاملات القاسية او الوحشية او الحاطة بالكرامة» هكذا تقول المادة . ولكن الناس عذبوا ويعذبون . فمن الذي يتجرد من الكرامة الانسانية في هذه العلاقة السلبية بين انسانين ، اهو المعذب ام المعذب ؟ . واضح ان الذي تعذب عذاباً غير انساني ، وان تألم او قاسى ، لم يتجرد من كرامته او اعتباره الانساني لانه لم يختر هو ان يهان او ان يحط من كرامته . اما الذي يتجرد من الكرامة فهو الذي يتعمد ان يعمل ذلك حين يتجاهل الكرامة الانسانية بمعناها العام ، وحين ينزل بأخيه الانسان اذى ذا صفة خاصة قد يأبى انزاله بالحيوان المجرد من الضمير ومن الاحساس العاقل .
وهذا الذي يصح في الحالات التي تخرق فيها المادة الخامسة يصح في حالات خرق بقية مواد الاعلان العالمي لحقوق الانسان : المادة الثالثة التي تنص على حق الفرد في الحياة والحرية وسلامة شخصه . والمادة التاسعة التي لا يجوز ، حسب منطوقها، القبض على اي انسان او حجزه او نفيه تعسفاً . والمادة الثانية عشرة التي تحرم التدخل التعسفي في حياة الفرد الخاصة او في اسرته او مسكنه او مراسلاته او تعرضه لحملات على شرفه وسمعته . وكذلك سائر مواد الاعلان العالمي الاخرى . ففي كل مرة ينكر فرد بتصرفه ، أو تنكر

سلطة بتصرفها ، على الافراد كرامتهم الانسانية بارتكاب ما حرمته هذه المواد . يقرّ ذلك الفرد على نفسه او تقرّ تلك السلطة على ممثليها تجرده أو تجردهم من هذه الكرامة التي يأبونها على من هم اهل لها وذوو حق فيها . ان ما يحاولون ان يسلبوه من الآخرين محاولةً ، يفقدونه هم فعلا .

قد تكون عقليةُ الطبيب الذي يرى في الفرد نواةَ المجتمع فيكرس للحفاظ على هذه النواة ولدفع الاذى والالم عنها علمه وذكائه ووقته، قد تكون عقلية الطبيب هذه مبعث اصراري على بديهية الكرامة الانسانية ، كرامة الفرد الانساني ، وعلى كونها واقعا مسلما به لا يتحمل المناقشة ولا الجدل . وقد يكون مبعثَ هذا الاصرار ذهنيةُ المثقف الذي يرى في الفرد قوة معنوية وصورة جمالية وعلة الوجود ومركز الكون . قد تكون هذه وتلك وراء تقديري الكرامة الانسانية بهذا الشكل . ولكني واثق بان العامل الاساسي في احلالي الكرامة الانسانية هذا المحل هو نفسيتي كعربي مدرك ، قدر امكانه ، لخصائص امته ، واعٍ لتاريخها في امجاد ذلك التاريخ وفي نكباته . فالاعلان العالمي لحقوق الانسان المبني في مبادئه ومواده على تلك البديهية يبدو في ادراك العربي الواعي ، حتى لو كان قليل العلم بالتاريخ او بالقانون ، ميثاقاً مقرِّراً لحقائق مسلم بها ، ولا يحمل إلى الضمير العربي جديداً . وانا لا ازال اذكر شبه الدهشة التي انتابتني ، حين قرأت نصوص حقوق الانسان كما قررها الاعلان العالمي ، عند صدوره منذ بضعة عشر عاماً ، فقد كان غريباً في نفسي ، وفي نفس كثيرين من امثالي آنذاك ، أن يجتمع ممثلو شعوب الارض في جلسات يجنّد لها اساطين التشريع والقانون ، وتتصارع فيها النظريات ، وتسلط عليها الاضواء فلا ينتهون إلى اكثر من مبادىء كتبناها ونحن صغار في دفاترنا على مقاعد الدرس . فهل كانت المادة الأولى من الاعلان العالمي لحقوق الانسان غير كلمة عمر بن الخطاب بروحها والفاظها : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً ؟ » وهل كانت المادة الثانية في هذا الاعلان الا تفصيلا غير محيط بكل المعاني التي اوردها الحديث الشريف : « لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى » ؟ .

نعم ان نفسية العربي ترى في الاعلان العالمي لحقوق الانسان ميثاقاً يتلاءم كل الملائمة مع نوازعها ومع نظرتها إلى اسلوب عيش الانسان في مجتمعه . وهو ميثاق طبقت امتنا مباده وعملت بمواده قبل النص عليها واقرارها في الجمعية العامة في كانون الاول عام ١٩٤٨ . ثم ان افراداً من امتنا ، وجماعات من هؤلاء الافراد ، على مر التاريخ القديم وفي تاريخنا المعاصر بصورة خاصة ، قد جاهدت لتجعل المبادىء التي صاغها اعلان حقوق الانسان في مواد، نافذةً ومحترمة . وكان جهادها منطلقاً دوماً من ايمانها بالكرامة الانسانية ووجوب الدفاع عنها. ولذا فان اخلالنا بما تضمنه هذا الميثاق من احكام او تخلينا عنها هو تنكر لماضينا الانساني كأمة آمنت بكرامة الفرد ، كما انها تنكر لماضينا في النضال كأمة جاهدت في الحفاظ على هذه الكرامة او في اعادة اعتبارها . وإذا كان في تاريخنا نكسات وكان في حاضرنا ثغراتٌ فانها تتوافق دوماً مع الفترات والظروف التي ضعف فيها الاحساس بالكرامة الانسانية ، أو تعرضت فيها الكرامة الانسانية للحط والإذى فتهاوت فيها مناعتنا ضد الدخيل وضد الغاصب وضد الطغيان .

أيها السيدات والسادة :

في تاريخ بلادنا ان جعبر بن كثير الثقفي كان يملك قلعة على شاطىء الفرات لا تزال اطلالها قائمة هناك تعرف باسمه ، قلعة جعبر . وإذْ كان موقعها منيعاً متسلطاً على المواصلات في جانبي الفرات فقد فاوضه أمير حلب خالد بن بدران ليسلمه القلعة على ان يعطيه بدلها اخصب الاراضي في سهول حلب في تاذف وبزاعة . فقبل جعبر بن كثير بالمبادلة وانتقل إلى ذلك السهل الغني الخصب ، ينمي المال ويبحث عن الترف . وفي ذات يوم ، بعد ذلك بسنين ، مر بجعبر احد معارفه القدماء من البداة وسأله عن امره وحاله تنهد حينئذ جعبر وقال : تسأل عن حالنا ؟ فقدنا العز منذ فقدنا القلعة !

وانا اسوق هذه الكلمة في الذكرى السنوية لاعلان حقوق الانسان لاعيد إلى ذهني وذهن كل عربي يتوق إلى حياة كريمة شريفة يتمتع فيها بحقه

وحريته ، والى ذهن كل انسان في هذا العالم يحز في نفسه بؤس الانسان المادي والمعنوي في بقاع الارض المختلفة ، اعيد إلى ذهني واذهان اولئك ان قلعة الانسان هي كرامته الانسانية . وانه حين تتهاوى هذه الكرامة ، وحين نعمل على الحط منها عند الانسان المواطن فان المجتمع يتهاوى معها والامة ، ويفقد بفقدها الشرف والترف .فحذار من ان تفلت هذه القلعة من ايدينا بالتراخي او بالمغريات،وحذار من ان نقول بعد فقدها يوماً : لقد فقدنا العز منذ فقدنا تلك القلعة . (١)

١٩٦٤/١٢/١٤

(١) ـ كتبت قصة قلعة جعبر من الذاكرة ، ولعل مصدرها مرجع آخر • والقصة كما رواها ياقوت في معجم البلدان أن القلعة كانت لشهاب الدين مالك بن علي العقيلي فأخذها منه نور الدين محمود بن زنكي ، وعوضه عنها سروج وأعمالها وملاحة حلب وباب بزاعة وعشرين الف دينار • وقيل لصاحبها : أيها أحب اليك ، القلعة أم هذا العرض فقال : هذا أكثر مالا ، أما العز ففقدناه بمفارقة القلعة •

أزمة المثقفين العرب

ردود على اسئلة في الحوار الذي ادارته مجلة الاسبوع العربي ، نشرت في هذه المجلة في عددها ذي الرقم ٣٥٦ في ٤نيسان ١٩٦٦ .

هل ثمة تيارات جديدة في الفكر العربي ، أم تيارات اجنبية مترجمة الى العربية ، وهل تتفاعل هذه التيارات وكيف ؟

ـ التيارات الجديدة في الفكر العربي موجودة ، ما كان منها باديا كأنه عربي اصيل، وما كانت عجمته أو اجنبيته بينة واضحة. غير أن هذه التيارات، على تعددها ضئيلة القيمة ضئيلة الاثر لان قيمة الفكر واثره في الحياة العربية المعاصرة ضئيلان . ولذا فان تيارات الفكر العربي على اصطخابها الظاهر قليلة التمادي الى الاعماق ، تظل سطحية أو أنها لا تعدو كونها عاصفة في فنجان . لقد ظل الدين هو المؤثر الكلي في حياة المجتمعات العربية حقباً طويلة من الزمن ، وقد حلت محله في هذا العصر السياسة . اما الفكر فانه لم يتجاوز مرتبة أن يكون خادماً مسخرا للسياسة في أحسن أحواله ، وفي احواله الاخرى يكون خصماً مستضعفاً او رعية محتقرة . يكفي ان يقول سياسي ،قد يكون احتل محله القيادي بالقهر او بالتآمر أو بتأثير قوى غريبة عن ضمير الجماهير العربية ، يكفي ان يقول سياسي مثل هذا ، كلمة او يبدي رغبة حتى ترى كيف يولد تيار فكري جديد ، وكيف ينبت مفكرون

جدد أو يتطوع مفكرون قدامى لصياغة هذه الرغبة وتلك الكلمة في مذهب فكري مستكمل العناصر .

لست اعني بهذا أن ليس بيتنا المفكرون الصادقون المخلصون للفكر وللشعب الذي هم منه . فهؤلاء موجودون ألا أن ميدانهم محدود والتيارات التي يثيرها نشاطهم الفكري قليلة التأثير . وإذا كان ثمة تفاعل حقيقي بين التيارات الفكرية فهو بين هذه التيارات القليلة التأثير . اما التيارات المصطنعة التي تحركها أو تجمدها السياسة فهي لا تتفاعل بل تتجاذب أو تتنافر بحسب المصلحة السياسية لخالقي تلك التيارات . وغالباً ما يكون التنافر ، أو التفاعل السلبي ، هو السائد فنجد عندها الجماهير العربية منعزلة فكرياً بعضها عن بعض لتنافر ساستها ومخاصمة بعضهم بعضاً . . .

– كيف تفسر عدم اسهام المثقفين العرب اسهاماً حقيقياً وفعالاً في تطوير مجتمعاتهم ، وكيف السبيل الى تعميق هذا الاسهام وتوسيعه ؟

– افسره بضعف الصلة بين ثقافة المثقفين العرب وبين واقع مجتمعاتهم .

ثقافة مثقفينا اجنبية الاصول تنتمي إلى عالم لم تعرفه جماهيرنا غير المثقفة ، وهي الكثرة الكاثرة من ابناء امتنا . لذا فان صوت هؤلاء المثقفين لا يبلغ افهام الجماهير فيما اذا ارتفع الصوت بمحاولات الاصلاح أو التطوير . زد على ذلك جهل هؤلاء المثقفين ، وثقافتهم اجنبية النسبة كما قلت ، بواقع مجتمعاتهم وعيوب ذلك الواقع . ان مفكرين من امثال محمد بن عبد الوهاب أو امثال الافغاني ومحمد عبده والكواكبي اثروا في مجتمعاتهم لانهم كانوا بثقافتهم وتفكيرهم أبناء تلك المجتمعات . أما في أيامنا فان مفكرينا وعامة مثقفينا يحملون شهادات الدكتوراه من الجامعات الغربية في مواضيع فكرية غربية ، ملمين تمام الالمام بالمذاهب الفلسفية والسياسية الغربية في حين أنهم يجهلون الاسس المحلية التي يقوم عليها بناء مجتمعاتنا من دينية ومذهبية وقبلية . ان ارجل مثقفينا وحدها تقف على ارض بلادهم اما رؤوسهم فهي تعيش في اجواء بعيدة كل البعد عن هذه الارض .

والسبيل إلى تعميق اسهام المثقفين في تطوير مجتمعاتهم وتوسيعه هو في احكام الصلة بين المثقف ومجتمعه . ولذلك طريقان . الاول هو طريق التهيئة ، بمعنى أن يهتم بأن تبنى ثقافة المثقفين على اسس مرتكزة إلى واقع مجتمعاتنا متصلة بتاريخها وباصولها الثقافية العريقة . ومع الاسف يبدو لنا أن هذا الطريق سيظل طريقاً مهجوراً ، لان التعليم الذي هو نقطة الانطلاق في الثقافة يبعد بناشئتنا عن الثقافة العربية المحلية والاصيلة يوماً بعد يوم ويزداد التحاماً بالثقافة الغربية ، متهاوناً بلغتنا وبتاريخنا وبالمقومات الحقيقية لقوميتنا .

الطريق الثاني هو طريق الشعور بالمسؤولية ، بمعنى أن المثقف الذي بنى ثقافته على اسس اجنبية غريبة عن مجتمعه يعود فيدرك واجبه حيال بيئته ونقائصها فيقصد إلى الالتحام بتلك البيئة مستفيدا من ثقافته المكتسبة في محاولة تطوير المجتمع . وهذا طريق لا يسهل سلوكه على كل مثقف . فهو يتطلب من سالكه أن يتحلى بخصال معينة هي خصال النخبة التي يؤمل منها الخير والتي تستطيع حقاً أن تطور المجتمع نحو الخير والاصلح .

ـ المفكر العربي المعاصر جبان وانتهازي ومستسلم ... والا ما هو سر عدم وقوفه في وجه اية سلطة مستبدة ؟

ـ المفكرون مثلهم مثل سائر الناس فيهم الشجاع والجبان ، والمتجرد والانتهازي ، والمتحدي والمستسلم . وانا لا اوافق على وصف المفكر العربي المعاصر بالجبن والانتهازية والاستسلام الا اذا كنا نقصد من وراء ذلك أن نقول أن الانسان العربي المعاصر جبان وانتهازي ومستسلم . . . حينئذ اقول ان المسألة فيها نظر !

ويحسن بنا اولا ان نحدد ما نراه من وقوف المفكر في وجه السلطة المستبدة . أيعني ذلك أن يقف الوقوف الجسدي بقوة السلاح ؟ انه حينذاك يكون محارباً مفكراً . وانا لا أنصح المفكرين باتخاذ هذه الوسيلة لانهم ، إذا لم

يقعوا شهداء . فان العقلية المحاربة لا تلبث أن تطغى على تفكيرهم فيتحولون من دعاة عدالة إلى جلادين ، ومن مناضلين من أجل الحرية إلى خانقي حريات ، حين تنتقل مقاليد السلطة إلى ايديهم . تأمل في سيرة لينين وستالين قبل الثورة الشيوعية وبعدها . وفي تحول كاسترو إلى الحكم الاستبدادي في هذه الايام بعد ان تطهرت كوبا من باتيستا وطغمته. اذن فالميدان الفكري هو ميدان المفكر في نضاله ضد السلطة المستبدة أو في دعوته إلى ما يرى فيه الخير والصلاح . هكذا فعل سقراط ، وكذلك كان شأن فولتير وجان جاك روسو .. وإذا كانت اثينا قد حكمت على سقراط بالموت ، فانها لم تفعل ذلك لان سقراط حمل السلاح ضدها بل لانه في احاديثه السلمية الهادئة كان يطور أفكار الشبيبة تطويراً خشيت منه السلطات القائمة على سلطانها . ولعلك تقول أين المفكر العربي المعاصر الذي لاقى حتفه في سبيل أفكاره كما لاقاه سقراط ؟ فأقول أن للموت اشكالا جسدية وروحية متعددة تسأل عنها المنافي والمعتقلات والمقابر في كل بلد عربي حكمته سلطة مستبدة في يوم من الايام .

ان مخاطر وقوف المفكر امام السلطة المستبدة تأخذ في هذا العصر أبعاداً غير مألوفة في العصور الفائتة أو في البلاد التي تسود فيها الاعراف الديمقراطية . يستطيع برتراندرسل وجان بول سارتر وفرانسوا مورياك ان يتحدوا سلطات بلادهم وقوانينها فيما يرونه مخالفاً لمعتقداتهم الفكرية فتطبق بحقهم الغرامات أحيانا ، ويضطرون السلطات أحياناً إلى التراجع عن قراراتها . ولكن السلطة المستبدة في بلد تملك فيه كل وسائل التعبير والاعلام والاقناع وكل القوى ، قادرة على ان تجرد المفكر لا من حياته أو حريته وحدهما بل على تجريده من اعتباره الفكري والوطني والخلقي . عدا عن أساليب الاقبية المتفننة في التعذيب الجسدي والروحي وفي تمزيق الكرامة والشعور الانساني . ومع ذلك هل خلت تلك الاقبية في بلدان السلطات المستبدة من نزلائها ، وهل عدم هؤلاء النزلاء افراداً ، مهما بلغوا من القلة ، كان سبب محنتهم مقال في جريدة أو رأي في مجلس أو بيت شعر في مناسبة ؟

بقي أن لا نحسب في حساب المفكرين هؤلاء الذين يحبّرون المقالات وينشرون الدراسات ويتحدثون ويخطبون في تأييد السلطات المستبدة وفي فلسفة تصرفاتها وفي صبغ حماقاتها أو جرائمها بالصبغة الفكرية . في رأيي أن هؤلاء مرتزقة فكر لا مفكرون ، هم يبيعون خدمات افكارهم وثقافتهم كما يبيع الجنود المرتزقة خدمات زنودهم المسلحة . قد يؤثر المفكر السلامة فينأى بنفسه عن مواضع التهم ومواطن الخطر ، مبتعداً عن ساح المعركة ، فنلتمس له العذر . أما الذي يضع فكره في خدمة الطاغية المستبد فليس من الفكر في شيء ، بل هو عارٌ على الفكر .

- كيف تفسر عدم ترشيح أي كاتب عربي لجائزة نوبل ، وهل لذلك علاقة بقصور الثقافة العربية المعاصرة عن المستوى العالمي ؟

- حين رفض برنارد شو جائزة نوبل التي منحها قال بأن الجائزة اشبه ما تكون بطوق النجاة الذي يلقي إلى انسان مشرف على الغرق بعد ان يكون بلغ الشاطىء . ويبدو ان ليس من كاتب عربي قد بلغ في منزلته الادبية شاطىء الامان ، اعني الشهرة الواسعة والمجد الادبي الراسخ والاكتفاء المالي ، حتى يمنح تلك الجائزة . أقول يمنح ولا أقول يرشح ، لان الترشيح لجائزة نوبل سهل وله شروطه المتيسرة لكل انسان . وقد حدث ان رشحت هيئات رسمية كثيرة عدداً من الكتاب العرب لهذه الجائزة ولكن لم يحفل بهذا الترشيح احد في دائرة المؤسسات الموكل اليها منحها . وأنا أعرف شاعراً وباحثاً فنياً عربياً يضع على بطاقته تحت اسمه لقب « المرشح لجائزة نوبل » منذ ارسل كتاباً إلى اللجنة الاكاديمية السويدية التي تمنح جائزة نوبل فتلقى منها اشعاراً بوصول ذلك الكتاب اليها . . .

على أن للفوز بجائزة نوبل مؤهلات أخرى يبدو ان الكتاب العرب لم يتحلوا بها كذلك . خذ مثلا باسترناك الروسي . لقد فاز بالجائزة على روايته « دكتور زيفاغو » التي نشرت بالايطالية والفرنسية والانكليزية وبقية لغات العالم الغربي قبل أن تنشر بلغتها الاصليه . فالروس لم يكونوا يعرفون باسترناك

الا كشاعر أو كمترجم للاثار الشعرية الغربية إلى لغتهم . ولكن باسترناك كان يهودياً ، وكان مضطهداً من قبل الحزب الشيوعي ، وكانت روايته تطعن في النظام الشيوعي ، فكان منحه جائزة نوبل عملا سياسياً أكثر منه أدبياً . وإذا كان شولوخوف قد فاز بجائزة نوبل في العام المنصرم فان ذلك لم يحدث إلا بعد أن أصبح التعايش السلمي بين الروس والعالم الغربي واقعاً وحين بدا للجانبين أن لهما عدوا مشتركاً واحداً هو الصين .

لهذا فاني لا أعد حرمان الكتاب العرب من جائزة نوبل دليلا على قصور الثقافة العربية المعاصرة ، كما أني لا أعد فوز كاتب عربي بهذه الجائزة دليلا على سمو هذه الثقافة . فمن المحتمل أن يفوز أحدنا بنوبل في السنين القادمة ، ولكني اتوقع منذ الآن ان الأمر سيكون مفاجئاً للجماهير العربية وللادباء العرب . فالمؤسسة التي منحت تشرشل جائزة نوبل للسلام العالمي[1] لن تتورع عن أن تهب جائزتها الادبية الى كاتب من العرب بعيد عن الاتجاهات الحقيقية لامته ، داعية إلى الانعزال العربي والتجزئة أو إلى مهادنة الصهاينة أو إلى أشياء قريبة من هذه . . .

ولكني في كل ما قلته لا أريد الدفاع عن منزلة الثقافة العربية والتأكيد على بلوغها المستوى العالمي. ثقافتنا قاصرة،يجب أن نعترف بهذا.ولعله من المفيد ان نتذكر أن الثقافة ليست هي الادب وحده،وان جائزة نوبل ليست مقصورة على الكتاب والشعراء وحدهم . فهناك نوبل لعدة فروع علمية يعد الفوز بها الدليل الصحيح على الثقافة التي لا تتأثر بالعوامل التي تتأثر بها جائزة نوبل للاداب أو للسلم . وفي رأيي أنه حين يفوز باحث عربي بنوبل للفيزياء والكيمياء ، أو نوبل للطب والعلوم البيولوجية والفيزيولوجية أو نوبل للرياضيات والطبيعة ، فاننا سنكون في غنى عن جائزة نوبل للادب كشهادة نتباهى بها امام امم العالم دليلا على بلوغ ثقافتنا المعاصرة المستوى العالمي . . .

(١) ـ الصحيح ان تشرشل منح جائزة نوبل ، في عام ١٩٥٢ ، للاداب لا للسلام .

٤ / ٤ / ١٩٦٦

اللغة العربية والعلم الحديث

ردود على اسئلة موجهة من المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي ، التابع لجامعة الدول العربية ، في الرباط .

س ١ — ما هي في نظركم اهم المشاكل التي تعترض سير اللغة العربية ، والتي تحد من انتشارها بسرعة في العالم ؟

ج — تحدد انتشار اللغة العربية في العالم ليس ناجماً عن مشاكل متعلقة باللغة نفسها ، بل عن اسباب متعلقة بالامة العربية ومنزلتها بين امم العالم ومستواها الحضاري في العالم المعاصر . ليس ادل على هذا من أن اللغة العربية انتشرت بسرعة فائقة بعد ظهور الاسلام ونهضة العرب الحضارية التي تلت خروجهم من جزيرتهم . لم تقف امام انتشار اللغة حينئذ اية مشكلة من المشاكل التي تثار الآن كتعقيد النحو والصرف وعسرة الكتابة وصعوبة مخارج الحروف .

فتخلف العرب الحضاري هو المسؤول عن الحد من انتشار اللغة العربية بين الامم التي ليست هذه اللغة لغتها . وحين لا يكون عند العرب ما يغري الشعوب الاخرى بالتماسه من منابعه ، من معطيات ثقافية وفنية اصيلة ، وحين لا يغزو العرب امم العالم لا بقوتهم ولا بعلمهم ، تبقى لغة العرب لغة ثانوية لا يتكلف احد جهداً في تعلمها غير ذوي الفضول ومحبي الغرائب مهما كانت اللغة من اليسر أو قرب التناول .

س ٢ – إذا كانت هنالك مشاكل تعترض سير اللغة العربية فما هي انجع الحلول في نظركم ؟

ج – مما اسلفت يتبين ان ليست هناك مشكلة رئيسية ليكون حل لها . ومستقبل اللغة العربية كلغة علمية رهن بمستقبل اهلها الناطقين بها .

ولا شك في ان هناك مشاكل هامشية نستطيع ان نسميها صعوبات لا تخلو من مثلها اية لغة سواء كانت واسعة الانتشار او قليلته . ومعالجة هذه الصعوبات تيسر تناول اللغة وتعلمها ، ولكنها لا تعطيها القدرة على فرض نفسها كلغة عالمية .

س ٣ – هل تصلح اللغة العربية للتدريس الجامعي ؟

ج – في رأيي أن كل لغة يتكلم بها الناس ويكتبونها تصلح للتدريس الجامعي . واللغة العربية اصلح من كثير غيرها من اللغات لكثرة مفرداتها ولدقة الفروق بين معاني المفردات المتقاربة منها ، ولمرونة التركيب فيها ، ولماضيها الحضاري . ولانها كذلك لغة جماعة كبيرة من الناس لهم تراثهم الجليل في التاريخ وللاوطان التي يسكنونها قيمة في حاضر العالم ومنزلة كبيرة منتظرة في مستقبله .

س ٤ – وإذا كانت اللغة العربية صالحة للتدريس والبحث الجامعي ما هي المشاكل التي تعترض الاساتذة وما هي الحلول في نظركم ؟

ج – العلم العصري سواء ما كان تدريساً في الجامعة أو بحثاً علمياً هو علم غربي البيئة والاصول اجنبي على اللغة العربية ، قد تلقاه الاساتذة والبحاث باللغات الاجنبية في الغالبية العظمى من الحالات .

والمشاكل التي تعترض الاساتذة الجامعيين في تعليم العلم والبحث في اللغة العربية مشاكل على نوعين . النوع الاول مشاكل نفسية مصدرها الفة الاساتذة للغة الاجنبية في تفكيرهم العلمي واقتران المعطيات العلمية في اذهانهم بالتعبير الاجنبي الذي درسوه فيه ، ايا كانت اللغة الاجنبية تلك افرنسية او انكليزية

او المانية أو روسية . هذا الاقتران وتلك الالفة يؤسسان في نفس الاستاذ الجامعي اقتناعاً بعجز اللغة العربية التي تلقى ثقافته العلمية بغيرها ، عن ان تكون وعاء متسعاً للمعارف التكنيكية أو البحث العلمي .

وهذه المشاكل النفسية تحتاج في حلها إلى ايمان الاساتذة الجامعيين والبحاث بأمتهم وبلغتها وبمستقبلها . وطبيعي أن الايمان بالامة لا يحدث في يوم وليلة ، فهو نتيجة للتربية الوطنية الصحيحة . وكذلك الحال في الايمان باللغة فهو لا يكون بامر او قرار رسمي ، بل لا بد للاستاذ الجامعي من أن يكون قوي الاطلاع على لغته الام متذوقاً لجمالها الفني من خلال قراءاته الادبية ، مدركاً لقيمتها التاريخية المتمثلة في تراثها المتوارث طيلة اربعة عشر قرناً . اما الايمان بمستقبل الامة فهو نتيجة ملازمة لمعايشة الاستاذ الجامعي لواقع الشعب الذي هو احد افراده بالاطلاع على مشاكله وحاجاته والتعرف على امكاناته الكامنة وطاقاته المهدورة . فالاستاذ الجامعي في العالم العربي المعاصر يجب أن لا يكون في عزلة . انه ، لكي يقوم بما عليه ان يقوم به ، يجب ان يكون رائداً وطليعة في بناء الاجيال الجديدة التي تفتقدها امته بين الامم، اعني بها الاجيال العلمية .

النوع الثاني من المشاكل التي تعترض الاساتذة الجامعيين في هذا المجال مشاكل واقعية مصدرها اللغة العربية نفسها . فنحن نعرف ونعترف بأن لغتنا لم تصبح بعد لغة علمية متكاملة . ان قصور اللغة العربية في هذا المجال يعود إلى اسباب تاريخية وانسانية خارجة عن ارادتنا نحن ، وعلينا نحن بارادتنا وتصميمنا أن نمحو هذا القصور ونعطيها الصفة التي تنقصها لتصبح مثل غيرها لغة صالحة لتدريس العلوم والبحث فيها . وهذا امر لا يمكن ان يحدث في يوم وليلة ، او ان يقوم به فرد او افراد قلائل . على كل مدرس وباحث ان يأتي بما يقدر عليه في مجاله ، مستعينا بجهود زملائه ، مساهماً بقسطه من الجهد والابتكار ، حتى تبلغ اللغة العربية ان تصبح اداة وافية في ميدان العلم مثلها في ميادين الفكر والادب ومثل كل لغة عالمية يثق اهلها بذاتهم ويحترمون انفسهم .

س ٥ – المصطلح العلمي يشكل في نظر الكثيرين اهم مشكلة تعترض نمو اللغة العربية ، فكيف للعالم العربي ان يتخلص من هذه المشكلة ؟

ج – المصطلح العلمي قد يكون اسماً او فعلا . وهو في هذه الحالة كلمة مكونة من جذر بسيط او عدة جذور مركبة ترجع في اصولها إلى اللاثينية او الاغريقية في غالب الاحيان . ويلحق بهذا الجذر او تلك الجذور اضافات وحيدة او متعددة مما يخلق منها كلمات جديدة تخضع في تكوينها إلى اصول الصرف والاشتقاق فياللغات الغربية . وقد يكون المصطلح العلمي صيغة رياضية او كيميائية معبراً عنها بالارقام والحروف اللاتينية واليونانية ، او كلمات مخترعة مختصرة لجملة مصطلحات علمية ممثلة باوائل حروف جذور تلك المصطلحات .

وطبيعي ان لا يكون هيناً اندماج هذا المصطلح العلمي باللغة العربية الفصيحة ذات الاصول الثابتة في التكوين والاشتقاق ، وذات الاوزان المحدودة لصيغ الاسماء والافعال ، وذات مخارج الحروف المعروفة والمحددة . غير ان العقبات التي تحول دون هذا الاندفاع ليست عقبات لا تذلل، كما ان اللغة العربية ليست الوحيدة التي اعترضتها هذه العقبات فذللتها .

اول العقبات وابسطها معالجة هو عدم احتواء الكتابة العربية حروفاً معينة ، وبصورة خاصة بعض الحروف الصوتية ، موجودة في اللغات الغربية مثل حرف V و P و G . وقد عولجتهذه العقبة معالجة معقولةباجراء تعديلات في التنقيط على الحروف العربية المقاربة في مخرج اللفظ للحروف المفتقدة . ولكن هذه المعالجة لم تدخل في دور التعميم الشامل ، وهذا قصور يمكن تلا فيه ويجب تلافيه .

وثمة عقبة اخرى هي التي تتعلق بتعريب المصطلح الاجني . وقد لعب التحرج والتصلب دورهما في تضخيم هذه العقبة حين اصر بعض المعنيين باللغة العلمية على تعريب كل مصطلح ورفض مالم يتوافق وزنه وتركيبه

مع اوزان الصيغ في اللغة العربية وتركيب الكلمات فيها . ولا شك بأن التنقيب عن كلمات عربية مهملة ومنسية كان العرب القدماء قد استعملوها في ما يقابل مسمياتها العلمية اليوم . كبعض مصطلحات التشريح والفلك وعلم النبات ، عمل جليل يغني لغتنا العلمية بمفردات كثيرة نحن في حاجة اليها . الا ان الطوفان المستمر من المصطلحات العلمية الجديدة يجعل الاصرار على اكتشاف كلمة قديمة لكل مصطلح جديد ، او تعريب هذا المصطلح الجديد بكلمة عربية فصيحة ، ثم فرض هذه الكلمة على الاوساط العلمية العربية المتباعدة والمنقطع بعضها عن بعض ، امراً مستحيلا ويضطر العلميين العرب الى قبول المصطلح الاجنبي بأقل ما يمكن من التعديل في لفظه . لقد ترجمت بعض المدارس مثلا كلمة هرمون بكلمة « حاثّة » ، وفيتامين بكلمة « حيامين » ، إلا أن الايام واقلام الكتاب اثبتت المصطلحين العلميين كما وردا في شكلهما الاجنبي ، ولم يحل ذلك دون اندماجهما باللغة العربية العلمية او ان يصبحا كلمتين شائعتين على السنة العامة من الناس .

ويبدو ان الاشتقاق في المصطلح العلمي وتطويعه لاصول الاشتقاق في اللغة العربية هو اشد العقبات بروزاً . فاللغات الغربية تقبل كلمات مؤلفة من عدد من الحروف يفوق العشرة أو العشرين ، مركبة من جذور متعددة ، مضافاً اليها زوائد كثيرة . اما اللغة العربية فان تحملها للكلمات الكثيرة الحروف عسير ، ولذا يلجأ المعربون إلى الكلمات المتعددة للتعبير عن المصطلح العلمي الواحد . فنحن نقول فرط التحسس كترجمة Hypersensibilité وتحت السرير ترجمة Hypothalamus ، إلا أن هذا يخلق لنا متاعب يصعب التغلب عليها في الاشتقاق الوصفي او الفعلي لمصطلحات مثل هذه . نستطيع ان نقول اكسدة لفعل Oxydation المشتق من اكسيد ، ونصرف فعل هذا المصدر بطريقة صحيحة. ولكن المسألة تتعقد حين نريد ترجمة Réoxydation و Desoxydation وتصريف الفعل المناسب لكل منهما. عدا ما هو اكثر تعقيداً من هذين مما تدخل فيه الزوائد اللاتينية واليونانية مثل Ana, dis

Extra & Intra ما كان منها بسيطاً او مركباً . ويبدو ان الحل في هذه الحالة وامثالها هو قبول المصطلح العلمي على حاله او بقليل من التعديل ، وترويض اللغة على الوان من الاشتقاق مرنة وان لم تتساهل فيها الكتب القديمة او الآذان المتصلبة .

غير ان كل هذه العقبات ، على جديتها ، لا تقف امام الارادة الصحيحة التي تفرضها الحاجة الماسة إلى فرض اللغة العربية لغة علمية عن طريق تدريس العلوم الحديثة لابنائها بها وتوسيع مفرداتها بقبول المصطلحات العلمية الجديدة في مفرداتها . ولا يخفى علينا ان لغات كثيرة اعسر في قواعدها وفي طريقة كتابتها من لغتنا قد طوعت للعلم (مثل اليابانية والعبرية) فلم تقف دون تفوق ابنائها في العلوم النظرية او التطبيقية . وإذا كان ثمة حائل صحيح دون ان تصبح اللغة العربية لغة علمية ثم لغة عالمية فهو ليس في اللغة نفسها بل هو في قصور الهمة وضعف الثقة بالنفس .

الرقة ، سورية ١٩٦٦/١١/١٢

الشعر العربي المعاصر والجاهلية والبادية

جواب على اسئلة طرحها الاستاذ جاك بيرك ، المستشرق الاستاذ في الكوليجدوفرانس، في احدى رسائله .

وهذا نص الاسئلة :

ماذا يمكن للشعر العربي المعاصر أن يستوحيه من شعر الجاهلية ؟ وشعر الجاهلية هذا ألا يزال متذوقاً وأي من شعرائه على التخصيص ؟ ومن ناحية اخرى ، ما هو نصيب البادية ، وبصورة خاصة حياة الصحراء ، من التأثير على الشعر المعاصر ؟

. . . كجواب على سؤالكم في رسالتكم الأخيرة اقول ان الشعر الجاهلي ، ولاسيما القصائد المعلقات السبع ، لايزال مقروءاً يتذوقه المثقفون ويتمثلون به . ولا يزال شعراء كامرىء القيس وعنترة وزهير وطرفة يعتبرون قمماً حتى من قبل شعراء المدارس الجديدة ، الذين اعادوا باقتباساتهم واستشهاداتهم اعتبار شعراء جاهليين شبه منسيين كالشعراء الصعاليك مثلا .

ويعود استمرار حياة شعراء الجاهلية في ثقافة العرب الراهنة إلى كون قصائدهم قد اتخذت اساساً كلاسيكياً للغة العربية . فتلاميذ المدارس يتلقون هذه القصائد كمحفوظات لهم في سن مبكرة ، ثم يستمرون في ذلك إلى أن يتوجوا دراستهم ، في الميدان الادبي ، بابحاث نقدية عن الشعراء الجاهليين في برامج البكالوريا . او ، على الاقل ، هذا ما كان عليه الامر في سنيّ الدراسة عند جيلي واجيال كثيرة بعده وكل الاجيال التي سبقته . وإذا كانت الدراسة الادبية في الحاضر اخذت تصطبغ بصبغة المعاصرة ، بصورة اخذ الناشئون

فيها يدرسون شعر بعض الشعراء المحدثين ومنهم بعض الاحياء ، فان الشعر الجاهلي لم ينزل عن مقامه كأساس أو كقمة . يضاف إلى ذلك ، أو يدخل في اسباب ذلك ، ان العرب بطبعهم « سلفيون » متعلقون باسلافهم ، مقدرون لهم تقديراً كبيراً ، وهو امر سبق واشرتم انتم اليه في مقدمتكم لمنتخبات الادب العربي الحديث .

هذا عن منزلة الشعر الجاهلي وتذوقه . واما عما يمكن ان يتلقاه منه الشعر الحديث فان ذلك يتعلق بثقافة الشاعر المعاصر الكلاسيكية ودرجة تشربه بالادب الجاهلي أو تمثله له . إذا استطعنا ان نعد شعراء ما بين الحربين العالميتين شعراء حديثين فان استيحاءهم الشعر الجاهلي كان كبيراً ، ولا سيما في الشكل (الالفاظ ، الصور ، طريقة البيت الواحد المستقل) . اما شعراء ما بعد الحرب العالمية الثانية فان بعدهم عن الاسس الكلاسيكية للثقافة الادبية العربية أدّى إلى ضعف استيحائهم من الشعر الجاهلي ، ذلك الاستيحاء الشكلي الذي جرى عليه سابقوهم . إلا أن هؤلاء الشعراء الحديثين انفسهم ، ولاسيما متبعي المدارس الشعرية الجديدة المتحررة من القيود الكلاسيكية للوزن والقافية ، قد عمدوا إلى استيحاءات جديدة من الشعر الجاهلي ومن الحياة الجاهلية بصورة اعم ، نجمت الحاجة إليها من تقليدهم لشعراء الغرب المعاصرين فيما ينظمون . شعراء الغرب هؤلاء (ت. س. اليوت بصورة خاصة ، وهو استاذ لكثير من شعراء العرب الشباب) يعتمدون إلى اقتباسات واستشهادات واشارات كثيرة إلى الميثولوجيا القديمة وقصص التوراة . وقد سار شعراؤنا الحديثون على غرار شعراء الغرب اؤلئك فاكثروا من ترديد اسماء سيزيف وبروميثيوس وايكار ، وإذ شعروا انهم في حاجة إلى ميثولوجيا عربية اخذوا يستخدمون قصص ألف ليلة وليلة وحكايات العرب القديمة حتى انتهوا إلى الجاهلية وشعرائها واشعارها .

اما في رأيي فان الاستيحاء الصحيح الذي يجب ان يستقيه الشعراء الحديثون

من الشعراء الجاهليين هو الصدق والاخلاص في الابداع الفني . الشعراء الجاهليون برزوا وابدعوا لانهم كانوا ، إلى جانب موهبتهم الفنية ، صادقين في وصف بيئاتهم ومشاعرهم ، بعيدين عن التصنع او وصف بيئة لم يكونوا يعيشون فيها او مشاعر لم يتحسسوا بها .

بقي شطر من السؤال : ما هو نصيب البادية في التأثير على الشعر المعاصر ، ونصيب الحياة البدوية ؟

ان العرب سلفيون لا في الزمان فحسب ، بل في المكان ايضاً . فمثلما كانوا يرون لاجدادهم خلاصة الفضائل كانوا يرون للبادية التي ترجع اليها اصولهم الافضلية على المدن بكل ما فيها من نعيم وطيب عيش . ولهذا كان امراء بني أمية حين تحضروا يرسلون ابناءهم إلى البادية ليعيشوا حياتها ويتكلموا لغتها في طور صباهم . كما كان الخلفاء الامويون وبعض العباسيين يتخذون من البادية مصايف لهم مثلما يتخذ الامراء والاثرياء اليوم الجبال وشواطيء البحار . وكان الشعراء العرب ، إذا لم يكونوا متحدرين من البادية ، ينتجعون البادية ليعايشوا اهلها وليروضوا السنتهم على الكلام الفصيح . ومن لم يمكنه ذلك كان يبحث عن مخالطة البداة حين انتجاعهم الحضر في المجتمعات المشهورة مثل المربد في البصرة .

هذا كان في القديم . اما اليوم فان الانقطاع بين البادية والحضر العربيين اصبح عميقاً والمسافة الفاصلة اصبحت كبيرة . والشعراء المعاصرون هم في اغلبهم ابناء مدن كبيرة او قرى صغيرة تعيش حياة الحضر وترى في البادية مجتمعاً متخلفاً ليس فيه ما يغري . وكل صور البادية والصحراء في شعرنا الحديث (كثبان الرمال ، السراب ، الهجير ، العطش) صور نظرية في الحقيقة ، اعني انها صور مستقاة من قراءات الشعر القديم لا من معاناة لبيئة الصحراء التي هي موطن الشعر القديم . واذا كان هناك بعض الشعراء

– في نجد والحجاز بصورة خاصة – يعيشون اليوم حياة الصحراء ويستلهمون صورها في بعض ما ينظمون ، فان عددهم قليل ، كما ان اسماءهم واشعارهم قليلة التداول في الاوساط الثقافية العربية المعاصرة .

ان الصحارى العربية لا تزال موجودة في بلاد العرب ولا يزال فيها سكانها، وبين هؤلاء السكان لا يزال يظهر الشعراء . غير ان شعر شعراء هذه الصحارى منقطع عن الشعر العربي الحديث لانه منظوم باللغة البدوية غير الفصيحة التي لا يتذوقها ولا يفهمها الشعراء الذين يكتبون في المجلات وينشرون الدواوين المطبوعة . وهناك حادثة واحدة فريدة رويت عن تأثر شاعر كبير بشاعر بدوي ،وهي مع ذلك حادثة مشكوك في صحتها . فقد زعم الاديب الأردني روكس بن زائد العزيزي ان قصيدة « الطين » للشاعر المهجري ايليا ابي ماضي مستوحاة من قصيدة لشاعر بدوي عاش منذ نحو من مائة وثلاثين عاماً واسمه علي الرميثي ، ودلل على ذلك بايراد ابيات من كل من القصيدتين تتشابه تشابهاً عجيباً في المعنى والالفاظ بما يخرج عن الحد المقبول لتوارد الخواطر (مجلة الاديب ، نيسان ١٩٥٥) . واذكر ان ابا ماضي ردّ في حينها في غضب مستغرباً ما كتبه العزيزي معتبراً القضية قضية تلفيق اريد الاساءة اليه بها . وفي ما سوى هذا فان تأثير الحياة الحاضرة على الشعر العربي الحديث في حكم المعدوم . لا يستثنى من ذلك إلا شعر شعراء قليلين ممن هم من اصل بدوي او ربوا في بيئة قريبة من البيئة البدوية (ولعلي انا شخصياً ، في القليل الذي نظمته من الشعر ، اعد ممن يشملهم هذا الاستثناء) ...

٢٨ آب ١٩٦٧

التزام المثقف العربي ومسؤوليته

حديث وكلمة القيا في الندوة التي عقدت في دمشق بين ٤ و ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ والتي نوقش فيها موقف المثقفين العرب امام القضية الفلسطينية ، بحضور مثقفين ينتمون الى خمسة بلاد عربية ومشاركة المستشرق الفرنسي الاستاذ جاك بيرك، الاستاذ بالكوليج دوفرانس .

للأمة العربية قضايا كثيرة اهمها واخطرها واكثرها الحاحاً قضية فلسطين . وفي هذه الندوة سيتحدث كثير من الزملاء عن موقف المثقف العربي امام القضية الفلسطينية من زوايا عديدة ومختلفة.وقد اردت من جانبي ان ابحث في موقف المثقف العربي بصورة شاملة من كل قضايا امته التي قضية فلسطين ، كما قلت ، هي اهمها واخطرها واكثرها الحاحاً .

في عصرنا تكاد تكون مستحيلة عزلة المثقف في برجه العاجي منصرفاً إلى لذائذ المعرفة او إلى متعة الابداع الفني ،فالقضايا العامة من محلية وقوميةوانسانية تنفذ إليه مع خبزه اليومي . والمثقف العربي ، مثل كل مثقف في العالم ، مسوق إلى الاهتمام بالقضايا الكبيرة وباتخاذ موقف منها . بل انه جدير بأن يكون اشد اهتماماً من المثقفين الأخر بهذه القضايا الكبيرة ، لأن انباء بعضها لا تفارق سمعه كل يوم ، وبعضها تقرع عليه باب داره كل لحظة مذكرة اياه بأنها تعني بالنسبة اليه الحياة او الفناء ، والوجود أو العدم .

اذن فاهتمام المثقف العربي بقضايا قومه وبلاده والانسانية امر حتمي وواقع . ويشتد الاهتمام حتى ليصبح في بعض الظروف ارتباطاً لامفك منه للمثقف الحق والمفكر الحق الصحيح الادراك للظروف المحيطة به ، الصحيح الشعور بمسؤوليته كمثقف ومفكر . فهل هذا هو آخر الشوط في علاقة المثقف العربي بالقضايا الكبيرة؟ان فئة من المثقفين المفكرين لا تقف عندهذا الحد او تكتفي بالاهتمام أو الارتباط بل تبحث عن علاقة اشد واكثر تحدداً فتتخذها وتطالب غيرها باتخاذها . هذه العلاقة او هذا الموقف هو ما اصطلح على تسميته بالالتزام .

والاصل في الالتزام ، إذا طبقناه على المثقف بوجه عام ، هو التقيد بمذهب بعينه،مذهب اخلاقي او جمالي او حتى عبثي (ونحن نذكر التزام ابي العلاء بما لا يلزم في جزء كبير ومهم من نتاجه الشعري) غير اننا حين نقول الالتزام اليوم ، وحين نقول التزام المثقف العربي بصورة خاصة ، فان الذهن ينصرف مباشرة إلى الالتزام السياسي ، اعني إلى تقيد المثقف العربي بمنحى سياسي يعتقده وينافح عنهوينتج فيه.وتتضاءل امام الالتزام السياسي كل الوانا لالتزام الاخرى من فنية أو اخلاقية،او انهذه الالوان الاخرى تصبح فروعاً تتشعب منه او روافد تنصب فيه .

واريد هنا ان ابحث عن قيمة الالتزام السياسي للمثقف والمفكر العربي وعما يمكن ان يكسبه لمجتمعه وامته ولأنتاجه الادبي والفني ، إذا كان اديباً او فناناً ، من هذا الالتزام .

في رأيي ان هناك نقطة ضعف في واقع التزام المثقف العربي،في هذه الفترة المعاصرة من تاريخنا،تنتج من كونه في التزامه منفعلا لافاعلا وتابعاً لامتبوعاً . فالأوضاع السياسية الراهنة في بلاد العرب والتنظيمات السياسية التي تستند عليها هي من خلق السياسيين ، وهؤلاء يدلفون في العادة إلى حلبة

السياسة من قلاع الاقطاع العشائري او من مراكز النفوذ الاقتصادي او من التكتلات العسكرية، إذا لم يكونوا مدفوعين بمصالح اجنبية التبعة. واثر المثقفين والمفكرين في تكوين هذه التنظيمات وتلك الاوضاع قليل ، ان لم يكن معدوما في احيان كثيرة . فالالتزام في هذه الحالة هو مسايرة للتيار المتدفق او سير فيه ، وقلّ ان يكون سيراً في الاتجاه المعارض . وفي الحالات القليلة التي وجد فيها مثقفون ساهموا في خلق التيار السياسي انتهى الامر باقصائهم عن الحلبة ، او بتنازلهم عن عقليتهم كمثقفين ليصبحوا حكاماً مستسلمين إلى ماكيافيلية السياسة او إلى سطحيتها .

قلت ان هذه نقطة ضعف في التزام المثقف والمفكر العربي . وقد بعدت هذه النقطة بالمثقفين والمفكرين العرب عن واجبهم واعطتهم في اعين الناس صفة الدعاة المأجورين أو الابواق او انها وصمتهم بالانتهازية والاستسلام . وقد جاء في استفتاء قامت به احدى المجلات العربية الواسعة الانتشار في العام الفائت سؤال هذا نصه : « المفكر العربي جبان وانتهازي ومستسلم ، والافما هو سر عدم وقوفه في وجه اية سلطة مستبدة ؟»(مجلة الاسبوع العربي العدد ٣٥٦/٤ نيسان ١٩٦٦) وقد كنت من بين الذي اجابوا على اسئلة ذلك الاستفتاء فكان من جوابي على هذا السؤال قولي « يجب ان لانحسب في حساب المفكرين هؤلاء الذين يحبرون المقالات وينشرون الدراسات ويتحدثون ويخطبون في تأييد السلطة المستبدة وفي فلسفة تصرفاتها وفي صبغ حماقاتها او جرائمها بالصبغة الفكرية . في رأيي ان هؤلاء مرتزقة فكر لا مفكرون ، هم يبيعون خدمات افكارهم وثقافتهم كما يبيع الجنود المرتزقة خدمات زنودهم المسلحة . قد يؤثر المفكر السلامة فينأى بنفسه عن مواضع التهم ومواطن الخطر ، مبتعداً عن ساح المعركة ، فنلتمس له العذر . اما الذي يضع فكره في خدمة الطاغية المستبد فليس من الفكر بشيء بل هو عار على الفكر » .

ما هو اذن الموقف الصحيح للمثقف والمفكر العربي من الالتزام وفي

الالتزام ؟ في رأيي ان التزام المثقف العربي يجب ان يكون متلائماً مع وضعه وقيمته في المجتمع العربي من ناحية ، وان يكون من ناحية اخرى التزاماً فكرياً واخلاقياً يطبّق في الميدان السياسي باعتبار هذا الميدان ساحة عمل ، لا أن يكون التزاماً سياسياً يجر وراءه القيم الفكرية والاعتبارات الاخلاقية .

فلكي يكون التزام المثقف العربي متلائماً مع موضع هذا المثقف وقيمته في مجتمع بلاده يجب ان يدرك هو، قبل غيره، بأن وجوده في مجتمع متخلف يجعل منه انساناً متميزاً بسعة اطلاعه وعمق وعيه وبمضاء الاداة التي يستخدمها في التعبير عما يريد قوله. وان هذا التميز يلقي عليه واجبات ينبغي له ان يفي بها . . . ينبغي عليه ان يقف موقف الموجه ، وإذا لم يتح له هذا الوقوف لظروف خارجة عن ارادته وقدرته فانه ينبغي عليه ان يقف موقف الناقد المقوم المنطلق من ايمانه هو لا من عوامل خارجية تملي عليه ارادتها املاء .

وأما ان يكون التزام المثقف العربي التزاماً فكرياً واخلاقياً ، فان هذا هو الالتزام الصحيح لانسان يحترم نفسه ويثق بمعرفته ويعي مسؤولياته . وما السياسة الاساحة عمل تطبق فيها الافكار والاخلاق معطياتها . قيم السياسة ، ولا سيما في بلادنا ، قيم متحولة بتحول اشخاصها الذين كثيراً ما نراهم يتهاوون كالاصنام بعد ان يظلوا فترة معبودين كالاصنام . اما قيم الفكر الصحيح والخلق القويم فقيم ثابتة . لذلك فواجب المثقف العربي ان يكون مخططاً للسياسة او مقوماً من اعوجاجها بفكره وتعبيره ؛ لا ان يكون مجروفاً بتيارها .

ان هذا موضوع جدير باكثر من هذا الايجاز الذي عالجته به وبتحديد اكثر من هذه الاشارات الخاطفة التي اتيت بها . وقبل ان اختم كلماتي اريد ان اعترف بأن موقف المثقف العربي ، في موضوع الالتزام الصحيح ، موقف دقيق . فالمثقف المفكر في الأنظمة السياسية المعاصرة ولاسيما في الأنظمة التي تعتمد الحكم المستبد ، انسان مشكوك فيه ، قد يقبل كمناصر ولكنه قل ما يقبل كمساهم صميم . ذلك ان الفكر الحق يعني احترام الحرية واحترام

كرامة الانسان ، وهذان عنصران كثيراً ما يقفان عائقاً امام الماكيافيلية السياسية.
واعود إلى جوابي على الاستفتاء الذي ذكرته آنفاً فاجدني قد قلت فيه ما يلي :

« ان مخاطر وقوف المفكر امام السلطة المستبدة تأخذ في هذا العصر ابعاداً غير مألوفة في العصور الفائتة او في البلاد التي تسود فيها الاعراف الديمقراطية . يستطيع برتراند رسل وجان بول سارتروفرانسوا مورياك ان يتحدوا سلطات بلادهم وقوانينها فيما يرونه مخالفاً لمعتقداتهم الفكرية فتطبق بحقهم الغرامات احياناً ، ويضطرون السلطات احيانا إلى التراجع عن قراراتها . ولكن السلطة المستبدة في بلد تملك فيه كل وسائل التعبير والاعلام والاقناع وكل القوى ، قادرة على ان تجرد المفكر لا من حياته او حريته وحدهما ، بل على تجريده من اعتباره الفكري والوطني والخلقي . »

ان المثقف والمفكر العربي الذي يود ان يكون ملتزماً الالتزام الصحيح يجب ان يضع كل هذا في حسابه اذا اراد ان يكون صادقاً في التزامه .

٤ / ١١ / ١٩٦٧

بعض ما أقوله قد قاله قبلي الأستاذ أديب اللجمي وان اختلفنا في طريقة الأداء .

وأنا اريد هنا حصر كلامي على النقطة الأولى في جدول اعمال اليوم وهي التي تتساءل عما ينتظر من المثقفين العرب في مجال مراجعة نقدية حول تفكيرهم في القضية الفلسطينية .

وعندي ان مراجعة المثقفين العرب لموقفهم في القضية الفلسطينية هي مراجعة في الأسس وفي الأساليب .

في الأسس اصر دوماً على انه يجب ان يدرك المثقف انه وقف موقفاً قاصراً مسيّراً من القضية الفلسطينية في أكثر الأحيان .

وادراكه هذا هو الخطوة الأولى ليصبح نقده الذاتي صحيحاً مجدياً ثم بنّاء . ويجب ان يدرك المثقف ان موقفه ذلك كان خاطئاً . المثقف يجب ان يتولى مهمة لا أقول قيادية ولكن توجيهية أو مقومة في اضعف الأحوال . في هذه المهمة يجب ان يتحمل مسؤوليته . ان يكون صادقاً مع نفسه وفكره ، شجاعاً وجريئاً في ما يقوله ويكتبه . الصدق والشجاعة شيئان نفتقدهما عند المثقفين — وربما ليسوا هم الوحيدين في هذا . كثيراً ما نسمع شكاوى من المثقفين حول ما جرى وما يجري . نسمعه بالكلام ولكن ما يكتب وما يذاع هو في الغالب

مختلف عما يقال . فاذا كتب المثقف او اذاع وجدنا شكواه المكتوبة اوالمذاعة مسددة إلى اهداف غير الاهداف التي تسدد اليها في الكلام المقول .

كيف يمكن للمثقف ان يصبح صادقاً وشجاعاً ؟

بالطبع ليس هنالك وصفة طبية او نصيحة نفسية لهذا . المصدر الأول للصدق والشجاعة هو الأيمان . الايمان بالقضية . الايمان بالامة والايمان بالفكر. فمن لم يكن مؤمناً لا يمكن ان يكون صادقاً ، وقل ان يكو ن جريئاً أو ان يتحمل بجرأة مسؤولية ما يريد ان يصدق فيه .

هذا في الأسس . أما مراجعة الاساليب فتكون خطوتها الأولى في ادراك المثقف انه لم يول القضية الفلسطينية وتوابعها الاهتمام الجدير بها كقضية العرب الأولى في هذا العصر . لم يعطها حقها من الاهتمام . كما انه لم يعطها قدرها من الجدية . فكلما حدث حادث له علاقة بالقضية فار الاهتمام ثم همد لينشغل المثقف ، مثله في ذلك مثل سائر المواطنين ، بقضايا أخرى هامشية او مهمة ، ولكنها بعيدة عن القضية ان لم يكن الاهتمام بها ضاراً بالقضية نفسها . في خلال عشرين عاماً ، من ١٩٤٧ إلى ١٩٦٧ ، اختلف الحكام العرب واختلفت الحكومات العربية والاحزاب العربية عشرين عاماً كاملة ، ولم تتفق إلا اياماً قليلة : اياماً قليلة بعد ١٥ ايار ١٩٤٨ ، اياماً قليلة أثناء ازمة السويس عام ١٩٥٦ ، اياماً قليلة وجد قليلة بعد ٥ حزيران ١٩٦٧ . وحتى هذا الاتفاق كان مشكوكاً فيه . لقد اختلف الحكام والحكومات والاحزاب فابتعدوا عن لب القضية . اما المثقفون فليس لهم الحق في ان ينجرفوا بهذا الاختلاف . عليهم الواجب في تخفيفه والعمل على ازالته . وعليهم الواجب ، إذا لم يستطيعوا القيام بذلك مباشرة ، ان يظلوا على اتصـال مستمر بالقضيـة بصورة جدية واهتمام صحيح . لقد فات المثقفين هذا في الماضي فليعملوا على ان لا يفوتهم بعد الآن .

ان من مراجعة الاساليب ان لا يقصر المثقف جهده على الكتابة في أمور

تنقل اليه وهو جالس وراء مكتبه . يجب ان يمارس القضية بنفسه . اني اتساءل مثلاً : كم منا زار خيام اللاجئين إذا لم يكن موظفاً ملزماً بمرافقة زائر غيره اليها ؟ كم منا داس الأرض الفلسطينية قبل ان تسلب ، او وقف على الحدود بعد ان سلبت ؟ ولا أسأل كم منا حمل السلاح . قد يرى بعضكم اني إذ اطالب المثقفين بأمور مثل هذه اكون مغالياً . ولكن من لم يحمل السلاح أمس واليوم فسيحمله غداً ، إذا كنا نؤمن بالفكر وبأن النتائج تتلو المقدمات . ان معاناة القضية الفلسطينية بهذا الشكل هي التي تصبغ بالصبغة الصادقة والمؤثرة تفكير المثقف وقوله .

ومن مراجعة الاساليب ونقدها مراجعة الوسائل الخاطئة فكرياً التي اتبعت في عرض القضية وأساليب معالجتها داخلاً وخارجاً .

مثال على ذلك : كلنا كنا نقرأ التعليقات الصحفية ونسمع التعليقات الاذاعية ونصغي إلى الأغاني الحماسية التي كانت تنادي بالتدمير والاحراق والافناء في معركة نريد لها ان تكون معركة استرداد حق نبيل . كلنا عرف كيف كان اثر هذه التعليقات والاناشيد على الشعب الذي وجد ان الكلام لا ينطبق على الفعل ، وكيف استخدمت هذه التعليقات والاناشيد كدعاية ضدنا في العالم الخارجي لابرازنا بمظهر المخرب المهدم المندفع في طريق بربرية وحشية . قد يقال هنا ان ما قيل وكتب يومئذ املاه الساسة . ولكني أقول ان الساسة أملوه ، ولكن الذي نفذه هم المفكرون والمثقفون . وهنا تكون العودة إلى ما قلته اولا وإلى ما أقوله دائماً من ان المثقف يجب ان يدرك مسؤوليته وواجبه في ان يكون موَجِهاً لا موجَهاً .

لست اريد ان احتكر الكلام في المواضع التي يجب ان نراجع نفسنا فيها وفي كيفية المراجعة . فهناك أمور أخرى عالجها ويعالجها اخوان آخرون ، ولكن اذكر هنا ما ينتظر من المثقفين العرب . وهناك شيء آخر أحب الالماح

اليه وهو ما ينتظر من غير المثقفين ، من الحكام بصورة خاصة ، ما ينتظر ان ان يتيحوه للمثقفين ليؤدي هؤلاء المثقفون ما هو منتظر منهم . في مقدمة ما ينتظره المثقفون من غيرهم ان يعطوهم الخبز اليومي للفكر ، وأعني بهذا الخبز : الحرية ، والحرية الصحيحة .

١٩٦٧/١١/٦

عن القصة ... قديمها وحديثها

حوار اجراه ، من القاهرة ، الاستاذ حلمي محمد القاعود ، ونشر في مجلة الآداب البيروتية ، عدد آذار — مارس من عام ١٩٧٢ .

— ما رأيكم في القصة العالمية الحديثة ؟

— لست من قرائها . حاولت قراءة رواية اسمها « الدرجات » لميشيل بوتور الفرنسي ، وهو من طبقة الان روب غرييه ، فلم أستطع اتمامها . هنري ميلر مثلا ، وهو روائي قديم حديث في آن واحد ، قرات له رواية « نيكسوس » فاتممتها وأنا في قراءتها بين المتعة والعناء ولكني آليت الا أقرأ له شيئا بعد ذلك لاني لا أريد أن تكون قراءاتي القصصية مصدر جهد وتعب . ولقلة قراءاتي في القصة الحديثة لا أستطيع أن أعطي فيها حكما منصفا . كل ما أستطيع قوله هو أني لا أحبها !

وفي رايي ان هذا الموضوع من القصة لن يكتب له الاستمرار . ميزته الرئيسية هي الجدة والغرابة : الجدة ستذهب بمضي الايام ، فكل جديد يصبح قديما بعد حين ، والغرابة تزول مع الالفة . كل هذا لا يعني ان هذا النوع من القصص لن يؤثر في الادب العالمي . اعتقد انه سيترك ، او انه ترك منذ الآن آثارا في تكنيك القصة المقروءة التي يصح ان يطلق عليها اسم قصة .

— هل يلزم بالضرورة أن تساير القصة العربية مثل هذه الموجة منهجا وموضوعا ؟ أم ماذا ؟ وهل نجحت في رأيكم مثل هذه التجارب الحديثة في القصة العربية ؟

— الواقع ان قاصين عربا سايروا هذه الموجة اما تقليدا مباشرا واما

لخضوعهم لظروف مثل التي حدت بالقاصين الغربيين الى خلق القصة الجديدة. والتقليد هو الاغلب . سمعت ، ولم اقرأ ، أن توفيق الحكيم ونجيب محفوظ كتبا قصصا من هذا النوع . من الناحية المبدئية انا اربأ بهما أن يسايرا الموضة وهما في القدرة والمكانة جديران بأن يخلقا الموضة لا ان يتبعاها . وهذا لا يعني ان ما كتباه في هذا المنحى ضعيف ... فقد يكون قويا ، ولكن يأتي من تقليد القوي للضعيف او الكبير للصغير . كثير من القصص التي قرأتها من هذا القبيل فاشل ولكن بعضها مقبول ، وبعضها معجب . وعندنا في سورية قاصان نستطيع اعتبارهما من كتاب القصة الحديثة الناضجة وهما زكريا تامر ووليد اخلاصي .

ــ يرى البعض ان هناك ازمة في القصة العربية « رواية ــ قصة قصيرة » فما الاسباب ؟ وكيف السبيل الى تجاوز هذه الازمة ؟

ــ الحديث عن الازمة يعني انه كان رخاء فتلاه الضيق الذي نسميه أزمة . متى كان الرخاء في القصة والرواية العربيتين ؟ لا أذكر انه كان ثمة رخاء مادي أو معنوي . نحن لا نزال في الميدان في طور التجربة . نستطيع أن نقول اننا في حالة فقر ادبي ، وسبب الفقر ناجم عن مكونات الفرد العربي والمجتمعات العربية من الناحية الثقافية . نحن مائة مليون عربي مجزؤون الى مجموعات متباعدة . واذا جمعنا كل من يمكنه ، من المائة مليون ، القراءة بصورة صحيحة اعني القراءة الثقافية والادبية ، نجدهم لا يعادلون قراء دولة عدد سكانها خمسة ملايين . من هنا يأتي الفقر او الازمة المستديمة في القصة وغيرها . اعطني قراء اعطك الف كاتب وعشرة آلاف كتاب في الرواية وغير الرواية .

اما العلاج فانه لا يخضع لمنطق هذه الايام الثوري . لا علاج الا بالتطور المستمر والتقدم المستمر نحو الافضل ... وهذا يحتاج الى الزمن .

ــ يقرأ الناس نتاج القصة القصيرة والرواية الى حد ما ، فيرون الرمزية تكاد تطغى على معظم هذا النتاج ، خاصة بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ . ولانها تنضح بتشاؤم قاتم ومرير فهل سيكتب لها الاستمرار ؟ وما مستقبل هذه الطريقة في التعبير ؟

ــ لا يلجأ الكاتب الى التلميح الا حين يعجز عن التصريح . كلنا مدرك لحقائق أوضاعنا وللاسباب الصحيحة لهزائمنا ، ولكن من يستطيع أن يصرح بما يقوله ؟ ولهذا نلجأ الى الرمز . اما التشاؤم فانه حصيلة الادراك لتلك

الحقائق والاسباب ... وستظل هذه الطريقة متبعة ما دامت الافواه مكممة والحريات الحقة مختنقة .

— تثار من حين لآخر قضية اللغة . البعض يفضلون صياغة القصة بالفصحى ، والبعض يحبذون التعبير باللهجة المحلية . وبين هؤلاء وأولئك هناك من يرى أن يكون السرد بالفصحى والحوار بالعامية . نرجو أن توضحوا على ضوء تمرسكم بفن القصة موقفكم من هذه القضية والحلول التي ترونها .

— لو كتبت قصصا بلهجتي المحلية لما فهمها احد خارج المنطقة التي انا منها، وهي منطقة وادي الفرات والبادية بقربه. ولكن ابطالي البدويين يتكلمون الفصحى فيفهمها أبناء منطقتي كما يفهمها المصري والمغربي . هذا هو الواقع الذي يبرر الكتابة بالفصحى ، عدا عن الواجب الذي يدعونا الى زيادة أواصر التفاهم بين العرب في كافة أقطارهم بالحفاظ على اللغة التي تكـاد أن تكون الرابط الوحيد بين شعوبهم المتباعدة ، تفوق في العمل التوحيدي حتى رابطة الذين نفسه في هذه الايام .

هناك سوء فهم لقضية صدق التعبير وكيفية ادائه . يقولون أن العامي يتكلم ويفكر بالعامية ، فكيف تقوله كلمـات لا يمكن أن ترد على لسانه ؟ في الاسـاس ، القصة هي حكاية متخيلة ، لم تجر في الحياة على حقيقتها . . . فاذا اردت الصدق بحذافيره ، لماذا تروي على الناس أشياء لم تحدث ! واذا رويت للقراء العرب قصة أحد أبطال فيكتور هيغو ، فانك تعلم ان هذا البطل تكلم بالفرنسية . . . فلماذا تقوله كلاما عربيا لم يسمع مثله في حياتـه ، ودعك عن النطق به ؟

هذا كلام يقال في مدخل النقاش والجدل ، ولكن الحقيقة تكمن في ان الذي يميز بين الفلاح والبدوي وابن البلد والطالب الجامعي والطبيب، ليس المفردات اللفظية ، بل المفردات الفكرية . . . اعني بالمفردات الفكرية الصور الفكريـة وطريقة تمثل هذ الصور والتعبير عنها بالتشبيهات والكنايات وبالمجاز . حين يصف البدوي ابتسامة حبيبته يشبهها بلمعة برق في سماء ليلة شاتية ، ويقول المثقف انه احس لتلك الابتسامة بأن جوقة سماوية كانت تعزف سمفونية رائعة . . . هذا هو الذي يميز المثقف عن البدوي ، لا أن يلفظ الاول تشبيهه باللغة الفصحى ويلفظه الثاني بمفردات بدوية لا يفهمها أحد غير ابناء عشيرته .

في عدد شباط — فبراير من العـام الماضي (١٩٧١) كتبت في مجلة « المعرفة » التي تصـدرها وزارة الثقافـة السورية قصة عنوانها « حكاية

مجانين » . أبطالها قاض وسائق سيارة وثري من المدينة وبدوي ميسور الحال وزوجة نصف متعلمة . تحاور هؤلاء الابطال ورووا قصص حياتهم باشكال مختلفة . بالطبع كان كلامي عنهم وبلسانهم باللغة الفصيحة . وقد قرأت هذه القصة على حضور كثيرين ، فانسجموا جميعا مع القصة وضحكوا مع ابطالها وتأثروا بأحزانهم . ولم يعترض احد على أني قولت احدا من الابطال ما لا يمكن أن يقوله لاني انطقتهم بالعربية الفصحى . ذلك أن طريقة التعبير ، لا المفردات نفسها . هي التي ميزت اولئك الابطال بعضهم عن بعض واسبغت على كل منهم صفته التي هي منه وهو منها .

بعضهم يقول أن المواقف الكوميدية تستلزم وتـزيد اضحاكا اذا وردت بالعامية . ربما صح ذلك في بعض الاحيان . ولكن الكاتب الموهوب يستطيع أن يضحك بالفصحى مثل العامية . وأذكر أن قصص ابراهيم عبد القادر المازني كانت تضحكني اكثر من غيرها مما يؤديه بعض المهرجين باللغـة العامية . وحتى اذا صح ذلك فان الضحكات السخيفة التي تنتج عـن اللعب السمج بالالفاظ العامية لا تستحق أن يعدل لها عن الفصحى . والتزامنا بهذه الاخيرة سمو في التعبير وواجب علينا تجاه ماضينا ومستقبلنا .

أنا مع الفصحى في السرد والحوار ، عن ايمان وتجربة ناضجة ومتفوقة.

ـــ هل نستطيع أن نتعرف على رايك الخاص في انتاجك: القصة والشعر وايهما تعتقد انه شغلك الاكبر ؟

ـــ القصة والشعر ، مثال المقال والمحاضرة ، ومثل الحديث في جلسة مع الاصدقاء ومثل العمل اليومي ، كلها اشكال للتعبير عـن ما اراه واعتقده وأحكم بأنه واجب عليّ أن افعله . ورايي الخاص اني كنت صادقا ، الى ابعد حـد ممكن لي . في تعبيري ، واني عبـرت في كثير من الاحيـان بموهبة وبمعرفة كبيرتين .

ولقد شغلت بالقصة اكثر من الشعر . اما سبب ذلك ، او تبرير ذلك ، فقد بسطته في محاضرتي الاخيرة التي اشرت انت اليها والمنشورة مؤخرا في « الآداب » (١) .

ـــ يعتقد بعض الادباء العرب ان الانتماء لفكر سياسي معين ضرورة

---

(١) نشرت هذه المحاضرة تحت عنوان « نحو رؤية جديدة للقصة » في العدد السادس من « الآداب » عام ١٩٧١ كما نشرت في كتابي « السيف والتابوت » بعنوان « رؤية في القصة » .

لازمة الكاتب ، بينما يرى البعض الآخر ان الكاتب يجب ان ينتمي الى الانسانية بمعناها الواسع والعريض . ما رايك في هــذا الموضوع على ضوء تجربتكم السياسية سابقا ؟

— في المحاضرة المذكورة آنفا ، وفي صفحات كتابي « أشياء شخصية » جواب على هذا السؤال . وازيد هنـــا أن تجربتي السياسية والنوع الذي مارست فيه هذه التجربة يتلاءم مع اسلوبي في التعبير ومعتقدي في التفكير . عملت نائبا وحكمت وزيرا وكنت في السياسة دون أن التزم بمذهب سياسي معين . وانما كنت اعتقد أن لكل مذهب سياسي ، في الغالب ، ناحية تتفق مع المثل الاعلى ، وانا آخذ بها واتجنب نقاط الضعف في ذلك المذهب .

ازيد ايضا ان هــذه هي طريقتي الشخصية ، وليس معنـاها اني ضد طرائق الآخرين ، الا بمقدار ما ينحرفون عــن الطريق السوي فيمـا يرونه ويعبرون به وعنه .

— هل انت راض عن النقد الادبي المعاصر؟ وما هو تصورك للارتقاء به؟

— رضاي عن النقد لادبي المعاصر مرتبط برضاي عن الحياة الادبية والنتاج الادبي بصورة عامة . بمعنى أن النقد الادبي ، مثل الادب نفسه ، يفتقر الى كثير من المقومات ليكون مرضيا . في اعتقادي ان الارتقاء بالنقد الادبي أسهل امكانية وأقرب من الارتقاء بالادب . النقد صنعة أكثر منه فنا ، ومن السهل ان تحدد للصنعة ضوابطها . اما الفن فضوابطه يصعب تحديدها . ان الذين يتصدون للنقد الادبي في الوقت الحاضر هم في أغلبهم كتاب مبتدؤون . ولا الومهم في هذا . فكل كاتب ناشيء يتوق الى بسط رايه في ما يقرأ ، ويجد سهلا أن يرى اسمـــه منشورا ومعروفا ككاتب ، لا بابداعـــه الشخصي بل بحديثه عن المبدعين . وانا اذ اعود الى ذكرياتي اجدني قد قارفت هذا الجرم في اول كتاباتي . ولكني ، على ما اذكر لم اكن متجنيا ولا قليل البضاعة من المعرفة الادبية في ما كتبت .

الوسيلة للارتقاء بالنقد الادبي في رايي أن يعهد في نقد النتاج الادبي الى نقاد متمرسين ، لهم سابقتهم في الابداع الشخصي كمـــا لهم من المؤهلات الدراسية ما يجعلهم أكفاء لابداء الراي في كتابات الآخرين . وانتقاء الناقدين يقع على عاتق رؤساء تحرير المجلات الادبية . واذا حدث وتعرض لنقد نتاج ادبي ناقد غير ممتهن ، اعني غير النقاد الرسميين ، فيجب ان يكـون معروفا بكفاءته . يجب ان لا يقبل كناقد كل من احسن الكتابة كفن دون أن يحسن معرفة الادب بالدراسة والبحث . اننا بهــــذا الحصر نرتقي بالنقد الادبي .

ونرتقي بالادب نفسه كذلك . وانا بهذا اشد تدقيقا على النقاد مني على الكتاب المبدعين . لرئيس تحرير مجلة ادبية ان ينشر لاي كاتب ، معروف أو غير معروف ، ما دام يجد في ما كتبه اثرا من موهبة . اما النقد فيجب أن لا يسمح به الا لمن يملك مؤهلاته .

هذا بالطبع ينطلق على نقد الآثار الجديدة او المتداولة . اما النقد كعلم ودراسة واستنتاج محصلات فانه عمليا لا يتاح الا للاكفاء الذين يتهيأون له بالدراسات المؤهلة . فليس متصورا ان كاتبا يستطيع ان ينشر كتابا في النقد ما لم تكن مؤهلاته كافية، وما لم يكن كتابه محتويا على ما يبرر طباعته ونشره .

— حدد لنا بعض الكتاب المبرزين في القصة والرواية على مستوى العالم العربي والقطر السوري ، تراهم اكثر نضجا وصالة .

— حكمي في هذا الموضوع ليس ذا قيمة كبيرة ، لانه لا يمكن أن يعطي صورة منصفة . فقراءاتي للقصة العربية في الوقت الحاضر قليلة . اقرا بعض الكتب التي تهدى الي وبعض ما ينشر في المجلات ، والمجلات كثيرة كما تعرف ولا يمكن الاحاطة بها كلها . اذا تركنا الاسماء الكلاسيكية التي توطدت مكانتها منذ اكثر من عشرين عاما ، فان بين الذين جلبوا انتباهي واعجابي « سليمان فياض » حين قرأت مجموعته « عطشان يـا صبايا » ، بعد الدكتور يوسف ادريس . ومن سورية نجد زكريا تامر وفاضل السباعي وجورج سالم . وثمة قاصون جدد أعرف اسماءهم لكثرة ما اقراها أو أسمع عنها ، ولكني لا اريد أن اتجاوز الصدق فأقول اني قرأت لاصحابها بما يمكنني من الحكم عليهم ، او اني قرأت لهم ما اثبت انتباهي عليهم .

— في « اشياء شخصية » المنا بشيء عن نشاتك — ترى ما هي خطوات حياتك الآن شخصيا واجتماعيا ؟

— اظن أن حياتي اصبحت قريبة من الاستقرار ... الذي لا احبه ! الوسيلة الوحيدة التي املكها لتجديد حياتي هي الاسفار ، وتحول بيني وبينها المسؤوليات العائلية بالدرجة الاولى . وما يسير غالبية الناس ويدعوهم الى خوض المجهول ، وهو الذي يدعونه طموحا او ميلا الى الافضل ، اراه الآن ، واكثر من اي وقتمضى ، سخافة . الشيء الوحيد الذي اراه يستحق الاهتمام هو مصير الانسانية عامة ، وأمتي بصورة خاصة . ولكنك تعرف أن مصائب هذه الامة المتأتية من داخلها اصبحت محزنة وداعية الى الانطواء والتشاؤم . والتسلية الوحيدة هي الفن استمتاعا واداء ... اعني قراءة وسماعا او كتابة وتاليفا . ليس هذه سوداوية ، ولكنها ادراك للواقع ومسايرة له ...

للانسان في تفكيري وأدبي المحل الأول

اجابات على اسئلة وجهها الاستاذ ياسين رفاعية . نشرت في مجلة الاقلام العراقية (العدد ١٠ ، عام ١٩٧٢) ، واعيد نشرها في مجلة الكفاح العربي ، في بيروت (العدد ٧٠٤ ، ١٢ تشرين الثاني عام ١٩٧٨).

ـ الملاحظ انك مارست جميع انواع الكتابة : القصة القصيرة ، الرواية، الشعر ، المقالة ، ثم المقامات . لماذا أنت موزع هكذا ؟

ـ اكتب ما اكتب لاعبر عن ذاتي : عما يجول في ذاتي وعما يقلقها او ما يثيرها من افكار ومشاعر . لكل فكرة وكل شعور الاسلوب الذي يليق بها وبه في التعبير . وكثيرا ما يكون هذا هو الذي يسوقني الى التعبير عنها وعنه بهذا الاسلوب او ذاك ،واحيانا تكون الظروف هي التي تملي عليّ نوع الاسلوب الذي اعبر فيه عن فكرة معينة او شعور معين . ولست ادري أهو سوء حظ او حسن حظ ان يكون الانسان قادرا على التعبير بأشكال مختلفة عما يريد التعبير عنه . الا اني لا اشعر بأسف على اني لم اختص بنمط واحد من انماط الكتابة في ماكتبت .لست ممن يرمون الى بلوغ امتياز او تفوق في ناحية ما حتى اسف على اني لم اسكب جهدي في اختصاص واحد لاكون المتفوق فيه ، كأن اكون شاعرا كبيرا او روائيا كبيرا . انما غايتي هي ان اعبر عما في نفسي ، وهذا الذي لم اقصر عنه ايا كان اسلوبي في ذلك التعبير .

ثم ان الكتابة ، في انماطها المختلفة ، ليست وسيلتي الوحيدة في التعبير عن ذاتي . اني اعتقد ان اسفاري وعملي الطبي ونشاطاتي في المجال السياسي

هي اساليب في التعبير مثل كتابة المقال او نظم الشعر او تاليف الروايات . وفي صباي كنت احلم بان اعبر عن بعض ما اشعر به عن طريق الرسم . بل اني كنت معدودا من الذين يحسنون هذا الفن،ولكن الظروف هي التي ابعدتني عنه.

لماذا انا موزع هكذا ؟ لان هذا التوزع سهل علي ، ويلذ لي ، ولان ظروفي وامكاناتي لا تسمح لي بان اكون موزعا أكثر من هكذا ...

ـ اي هذه الانواع الادبية اقرب اليك ... وأيها تراها عبرت عن مشاعرك كفنان ؟

ـ الشعر هو احب الانواع الادبية الى نفسي . احب الشعر واتأثر به اكثر من غيره ، ما انظمه انا واشعار الشعراء الآخرين . ولكني لا اجد الشعر قادرا على التعبير عن كل ما يريد ان يعبر عنه الفنان الواسع الافق والكثير الافكار والمتعدد التجارب . وفي رأيي أن القصة ، القصة القصيرة والرواية ، أقدر الانواع الادبية على السماح للفنان بالتعبير عن مشاعره وافكاره .

ـ ثم لماذا لا تتجه كليا الى الرواية بعد نجاح روايتك «باسمة بين الدموع»؟

ـ اكتب كل يوم عشرات الوصفات الطبية لمرضاي المتجددين كل يوم .. وأكتب مقالات كثيرة لمجلات في مشارق الارض ومغاربها ، بعضها مقروء كثيرا وبعضها قليل من يعرفها . واكتب بين الحين والحين قصة قصيرة . وانظم قصائد احتفظ بها لنفسي . ومنذ ايام اكتشفت في أحد أدراجي رواية صغيرة ، أو قصة طويلة ، بدأتها في عام ١٩٥٩ ولم يبق لها كي تتم غير حوالي عشر صفحات . وأنا أحاول الآن كتابة هذه الصفحات العشر . عنوان الرواية « ألوان الحب الثلاثة » . واصعب ما الاقيه في كتابة التتمة هو أن اجد السبيل الى ان احصر الحب في ثلاثة الوان فقط ، لئلا اكذب العنوان ، وانا الذي يعلم أن للحب الف لون ولون ... (١) .

لا أظنني راغبا في الاتجاه كليا الى كتابة الرواية ، مهما بلغت من النجاح فيها . ولكني احب أن لو كتبت روايات أخرى غير « باسمة بين الدموع » . وبالفعل فقد بدأت منذ زمن عدة روايات ، ثلاثا على الاقل ، لم أتمكن حتى الآن من اكمال واحدة منها . السبب ؟ أن الرواية تحتاج الى زمن طويل نسبيا ، يحيا الانسان فيه على موضوع بعينه ، ويعيش فكرة بعينها ، حتى ينهي عمله

(١) لم أتم هذه الرواية بنفسي ، بل أتمها عني الاستاذ أنور قصيباتي ، وظهرت « ألوان الحب الثلاثة » كعمل روائي مشترك يحمل اسمينا معا ، وذلك في منشورات دار العودة في بيروت عام ١٩٧٣ .

الروائي . وطراز حياتي لا يتيح لي هذا الزمن الطويل نسبيا . عملي الطبي يستغرق القسط الاوفر من وقتي ولا يتيح لي غير ساعة او ساعتين يوميا ، او في كل يومين أو ثلاثة ، استطيع ان انصرف فيها الى الكتابة . ثم ان اسفاري القصيرة والطويلةتقطع وقتي وتغير أجوائي . وحياتي العائلية والعشائرية، وعوامل كثيرة اخرى ، تحرمني الوقت الكافي المتماثل والمنسجم الذي يسمح لي باتمام عمل موحد هو الرواية الطويلة . لست أشكو من هذا ، ولكنه هو الواقع الذي يجعلني الجأ في الكتابة الى القصة القصيرة او المقال الطيار .

الرواية الطويلة المرشحة لتكمل قبل غيرها هي رواية بداتها منذ سبعة اعوام واتممت كتابة الجزء الاول منها ، وبلغ نحوا من ثلاثمائة صفحة . اعطني شهرين من الوقت أكون فيه متفرغا اعطك الرواية كاملة . والا فانها ستحتاج الى سبعة اعوام اخرى ، على الاقل كي تتم (٢) .

منذ اثني عشر عاما كتبت باسمة بين الدموع . كتبتها في سبعة شهور . وقد انتهت في تلك المدة لاني كنت ملزما بكتابتها لصديق استكتبني تعهدا قانونيا بمدة محدودة ، وأخذ ينشر القصة مسلسلة في مجلته . وكنت ارسل اليه الفصل فينشره قبل أن أعرف ماذا سيحتوي الفصل التالي الذي لم يكتب بعد. ولهذا لم أكن راضيا عن الرواية كل الرضى من الناحية الفنية . ولكنها كتبت على كل حال في مدةقصيرة لاني الفتها في زمن كانت فيه مشاغلي الطبية اقل مما هي عليه اليوم ،ولم يكن لدي يومذاك مشاغل عائلية . كنت متحررا من كثير مما أنا مثقل به اليوم ...

ـــ أنت هاو للرحلات ... أي البلاد اجمل ما زرت... وما هي ذكرياتك عنها ؟

ـــ البلاد الجميلة كثيرة : ريد دي جانيرو ، استانبول ، بودابست ، ومدن كثيرة غيرها حبتها الطبيعة وأكسبها الانسان الوانا مختلفة من الجمال . ولكن بلدانا اخرى غير ذات شهرة كبيرة تصبح جميلة بالذكريات التي تبعثها في النفس . لقاء في لوسرن ، وصحبة في طليطلة ، وحكاية في هلسنكي ، تجعل من لوسرن ومن طليطلة ومن هلسنكي اجمل بلاد الدنيا . وما اكثر اللقاءات

---

(٢) الرواية المعنية هي «قلوب على الاسلاك » ، وقد أتممتها بعد هذا الحوار وظهرت في منشورات « الاهلية للنشر والتوزيع » في بيروت عام ١٩٧٤ . وقد ظهرت لي بعدها روايتان هما « ازاهير تشرين المدماة » عام ١٩٧٧ ، و « المغمورين » عام ١٩٧٩ .

والصحبات والحكايات في ذكريات انسان مثلي . لذلك لا تطمع بان اسمي لك بلدة بينها كأنها الاجمل ، فانا في الواقع لا ادري ايها كذلك . . .

اما عن ذكرياتي عن البلاد الجميلة فقد ملأت بها كتبا . الفت كتابين عن الرحلات هما « حكايات من الرحلات » و « دعـــوة الى السفر » . عدا عن قصص الاسفار المبثوثة في مجموعاتي القصصية وفي العـــديد من المحاضرات والمقالات التي لم تجمع في كتاب . فلا تطمع كذلك بان اختصر كل ما كتبته . وكل ما اكتبه ، عن ذكريات السفر في عجالة مثل هذه . . .

ـ هل تعتبر ما يكتب من شعر داخـــــل الارض المحتلة يسمى بالفعل « شعر مقاومة » ؟

ـ اخذت المقاومة في اذهاننا صورة عمل ايجابي وفعال . عمل عنيف ضد العدو . وما يكتبه شعراء الارض المحتلة حري به ان يدعى شعر صمود . اكثر من شعر مقاومة . وهذا لا ينقص من قيمته مثقال ذرة . فهو شعر رائع من الناحية الفنية ، ومن الناحية النضالية هو قمة سامية . انه يعبـــر عن صمود الانسان العربي في أرضه وتشبثه بعروبته امـــــام طوفان الترهيب والترغيب وضد جراثيم التخاذل والميوعة . من كل قلبي احيي هؤلاء الشعراء واحب شعرهم .

ـ الملاحظ في كل انتاجك انك التزمت (الانسان) ، هل كان ذلـــك عن قصد ام جاء عفويا ؟

ـ أنا ، كما أسلفت القول، اعبر في الكتابة عن ذاتي، مشاعرا وافكارا. فما تفصح عنه كتابتي هو حقيقة ما أفكر به أو اشعر به ، ليس في ذلك تكلف أو تصنع . لم اعتنق مذهبا معينا لاجعل الكتابة اداة دعاوة لهذا المذهب . فاذا كان قارىء يرى اني التزمت « الانسان » في ما اكتب فهذا يعني اني احل الانسان في تفكيري وشعوري المحل الاول ، فأكتب عنـــه ومن اجله وله ، بصورة عفوية وغير مقصودة .

ثم أن « الالتزام » كلمة معاصرة ، وفي رايي انهـــا محدودة وضيقـــة الاستيعاب . ولست احب أن يقال عني اني ملتزم بشيء في انتاجي الادبي . قبل ان يخلق الالتزام كان هناك كتاب عباقرة وشعراء كبار . والملتزمون من كتاب هذا العصر وشعرائه ، مهما بلغوا من الاخلاص والصدق ومهما بلغت قضايا التزامهم من النبل ، مرتبطون بقضايا موقتة من قضايا الجيـــل الحاضر ستنساها الاجيال القادمة مثلما تنساهم هم . . . الا اذا شفعت لهم موهبتهم

الفنية وارتباطهم بالانسان نفسه . لان « الانسان » هو القيمة الثابتة التي لا تزول بتعاقب الاجيال .

ـ فؤاد الشايب كان صديقك . بعد رحيله الفاجع ، هل لك ان تعرف قراء هذا الحديث عنه ؟

ـ فؤاد الشايب كان انسانا وكان فنانا . فؤاد الشايب الانسان أعطى كل ما عنده وخير ما عنده لاهله وبـــلده وقومه . كان رب الاسرة الحدوب الدؤوب ، وكان وفيا لاصدقائه ساعيا الى خيرهم بكل ما في طاقته من خبرة ... وقد تولى مناصب كبيرة كثيرة فكان فيها المنتج الفعال . ابرز وجه سورية العربي في كل المؤتمرات الادبية والفكرية التي حضرها ، فكان فيها القومي المتحرر العميق الفكر الثاقب النظرة البليغ البيان . وآخر عطائه انه أعطى نفسه ، فضحى بحياته في آخــر منصب تولاه ، وهــو ادارة مكتب الجامعة العربية في بونس ايرس ، حين قضى على اثر نوبة قلبية أصابته في خلال مقارعته للصهاينة في تلك البلاد القصية واعتداءاتهم المتوالية عــلى شخصه ومقر عمله هناك .

ذلك هو فؤاد الشايب الانسان ، اما فؤاد الشايب الفنان فهــو كاتب القصة القصيرة الذي تصدر ميدانها منذ ربع قرن بقصص مجموعته الوحيدة « تاريخ جرح » . بهذه المجموعة وحدها ظل فؤاد الشايب في طليعة الكتاب كلما ذكرت القصة القصيرة في بلادنا . كان مؤهلا لان يعطي الفن في الميدان الروائي روائع جديدة . ولكن الظروف التي لا يستطيع أحدنا ان يتحرر تحررا كاملا منها جعلته يؤثر مكان المعلم الموجه على مكان المبدع . اقتصر في الادب على مكان الريادة والبحث والتوجيه ، وهو مكان يكثر المؤهلون له ، ففاتـــه الكثير من موهبته التي خلقت للخلق والابداع .

ـ من هم اصدقاؤك من الكتاب والشعراء ؟

ـ ولماذا الاقتصار على الكتاب والشعراء ؟ الاصدقاء في كـــل المجالات قلة ، وان كان الاصحاب كثيرين . وعلى كل حال فاني لا أجد سهلا ، ولا مناسبا ، ان اعدد اصدقائي في مثل هذا الحديث .

ـ هل هناك ادباء شبان يلفتون نظرك في الجيل الجديد ، شعراء كانوا او كتاب قصة ؟

ـ لا اجرؤ على اعطائك جوابا عــــلى سؤالك هذا ، فاني في قراءاتي

الحاضرة بعيد عن الاطلاع او عن مسايرة ادب كتابنا الشباب . مطالعاتي في اغلبها علمية ، واذا لم تكن في ادبنا القديم فهي بلغة اجنبية . وقراءاتي العابرة للمجلات الادبية لا تؤهلني لاعطاء حكم صائب . هذا نقص فيّ ولكني اعترف به . وقد اعطيت منذ سنوات اجوبة على مثل هذا السؤال ولكن الشبان الذين لفتوا نظري في ذلك الحين لم يعودوا اليوم شبابا .

— هل حققت بعض طموحك ؟

— انا إنسان قليل الطموح . . . وهذا عيب آخر اعترف به دون موارية. ولا سيما حين اذكر ان شوقي عاب من لا طموح له بقوله :

شبـــاب قنـــع لا خيـــر فيهم   وبورك بالشباب الطـــامحينا

في صغري كنت احلم بأن اكون عنتر بن شداد أحمي حمى عبس واستاق النوق العصافيرية من النعمان بن المنذر لاقدمها مهرا لعبلة . . . ولكنني تبينت بعد ذلك انه لا لون بشرتي ولا عضلات ساعدي تسمح لي بأن أكون عنتر ، وان عبلة قد انقضت خمسة عشر قرنا على ايامها ! ومن يومها تركت الاحلام المستحيلة وانصرفت الى العمل . واذا كنت حققت نجاحا في حياتي فاني لم اسع الى النجاح كفاية ، بل عملت وكانت النتيجة الطبيعية للعمل هـــو هذا النجاح . بالعمل المستند الى العلم والموهبة والخلق المناسب وجدتني اصبح طبيبا ناجحا وكاتبا معروفا ونائبا سابقا ووزيرا سابقا . واقول لك الصحيح . . . لقد قنعت بما وصلت اليه ، بل وجدت مسؤوليات ما وصلت اليه أكثر مما تتحمله نفسيتي . لذا فاني لست أطمح الى اكثر من هذا . من المحقق اني لن أصبح في يوم ما مليونيرا ولا عضوا في المجتمع العلمي العربي ، ولا رئيسا للجمهورية ، لاني لا احب ان أكون واحدا من هؤلاء ، فلا اطمح الى ان اكونه . ولشوقي ان يقول بعد هذا ما يقول . . .

كاتب وموقف

حوار وجه اسئلته المرحوم صدقي اسماعيل رئيس تحرير مجلة الموقف الادبي ، مجلة اتحاد الكتاب العرب في دمشق ، ونشر في عددها رقم ٤ — ٥ في آب — ايلول عام ١٩٧٣ .

— معروف انك بدات حياتك الادبية بالشعر العاطفي والقصة القصيرة ذات الطابع الوجداني ، غير ان اول ما نشر من نتاجك الادبي كان يتصف بواقعية امينة للسرد القصصي الملتصق بالبيئة ، اقرب الى الموضوعية فهل يرجع ذلك الى نقطة تحول في تجربتك الادبية وحياتك ؟ ما هي ؟

— الشعر العاطفي الذي بدات به حياتي الادبية كان بالنسبة الي ، في تلك السن وفي ذلك القدر معاناة الحياة ، نتاجا واقعيا . كنت اتصور انه اصف به واقعا نفسيا لي . واذا لم اكن بدات به في النشر ، او اذا لم اكن قد نشرته باسمي الصريح ، اذ نشرت اول انتاجي الادبي العاطفي تحت اسماء مستعارة مختلفة ، فبدافع الانطواء على الذات والحياء عن اعلان احاسيسي الشخصية على العالم . لذا كان أول ما عرف مما نشرته صفحات توحي بأنه سرد واقعي بعيد عن الذاتية وعن العاطفية . توحي بذلك ، او توهم به ، والحقيقة خلاف ذلك . ربما كان وصف البيئة والاشخاص في ما نشرته من قصصي الاولى ، وحتى في آخر نتاجي القصصي الذي اكتبه هذه الايام ، ربما كان ذلك الوصف واقعيا . غير ان المحتوى من فكرة او مشاعر هو عاطفي او خيالي او مثالي ، وهو احيانا لا معقول . وكثير مما احتوته قصصي الاولى يجده القارىء عاطفيا او ذاتيا او غير واقعي لو انني كتبته مقولا في مقال على لساني او لو اني نظمته شعرا . مثال على ذلك : قصة بنت الساحرة ، قصة قطرات دم ، وغيرهما من مجموعتي القصصية الاولى « بنت الساحرة » .

لذا فاني لا اجد اني تحولت ، من حيث الجوهر ، في موقفي من الواقعية والعاطفية ، ولكني تطورت بزيادة التجربة وتقدم السن وبتبدل الظروف حولي في الفترة بين أول نتاجي وآخره .

— ما هي الحوافز الاولى للكتابة لديك ؟

— اذا كان المقصود بالسؤال اولى حوافزي التي جعلتني اتجــه الى الكتابة منذ البداية ، فاني اجبت عن هذا مرة بقولي ان ما بقي في ذاكرتي عن كتاباتي الاولى ،أو محاولات الكتابة ، هو انها كانت مزيجا من محاولة التعبير عما في النفس والتقليد لما كنت اقرأ . فمما لا شك فيه اني دخلت الى الكتابة عن طريق الولع بالقراءة .فتحت لي الكتب التي تعلقت بها منذ قدرت على فك رموزها الآفاق الواسعة التي لم تكن تفتحها الحياة في البلدة الصغيرة ، الرقة، للطفل الذي كنت أنا ، فحاولت أن أزج نفسي في حيــاة تلك الآفاق . بدات محاولاتي في الكتابة ، وكنت في الثانية عشرة من عمري ، بتأليف تمثيلية فجة حول قصة تاريخية جرت في ضواحي الرقة ، وكتبت قصة بوليسية لطول ما فتنت بالروايات البوليسية ، وحين قرأت آلام فرتر بــدات بكتابة مذكرات شخصية توخيت لها أن تنتهي بما انتهت به قصة فرتر لغوته . وكانت تلــك محاولات تقليد مضحكة . الا ان أول ما نشرته كان منبئا باحساسي بأن حولي اشياء ذات قيمة لا يعرفها الناس البعداء وعليّ أنا أن اتولى نقلها لهم . أول ما نشرته كان قصة ظهرت في مجلة الرسالة المصرية ، وكنت آنذاك لا أزال تلميذا في الثانوي ، تسجل حكاية قاطع طريق بدوي شهم . قصة واقعية ، الا انها رومانتيكية النكهة . نشرت تلك القصة بتوقيع مستعار لم أرفقه باسمي الصريح الى تلك المجلة الذائعة الصيت آنذاك ، كما اني لم أخبر أحــدا بعد ظهور القصة انني أنا الفائز بشرف كتابتها ، عــلى اني كنت مع ذلك سعيدا بنشرها لاني برهنت به على قدرتي على التعبير كما اديت بها واجبي في التعبير .

أما اذا كان السؤال يقصد حوافزي الدائمة التي تأتي من حيث الاهمية في الدرجة الاولى في دفعي الى الكتابة فاني اقول انها قبل كل شيء حوافز ذاتية ، تنتسب الى ما سميته محاولة التعبير عن النفس ، بعد أن تجاوزت مرحلة التقليد لما كنت اقرأ . لدي دوما ما يستحق ان يقــال وما أريد قوله ، فكرة أو راي أو احساس . غير ان الكتابة ليست الطريقة الوحيدة للتعبير عندي . اعبر عما في نفسي احيانا بالعمل ، واحيانا بالسفر ، واحيانا بالكلام . وحين الجأ الى التعبير بالكتابة فاني افعل ذلك مرة مضطرا ومرة مختارا ومرات بين بين . تمتلأ نفسي احيانا باحساس مبهم يسوقني سوقا الى الكتابة، كاني

اريد بها توضيح ابهام ذلك الاحساس لنفسي قبل توضيحه الى الآخرين .
حدث هذا حين كتبت قصة قناديل اشبيلية مثلا . فقد كنت نزلت مدينة اشبيلية حين زرتها في الليل بعد نهار مرهق في قطار الكوريوس الاندلسي ، وسهرت فيها في الكاسينو ، ثم انطلقت بعد منتصف الليل اجوس وحدي في ازقة احيائها القديمة الضيقة الرطبة العطرة ، في ضوء القمر الذي كان بدرا ليلتئذ، فامتلأت نفسي بمشاعر مزيج من الغبطة بجمال ما كنت ارى ومن الحنين الى الماضي والاسى من الحاضر ، ظلت هذه المشاعر ترافقني حتى عدت الى بلدي ، ولم انفلت من ضغطها علي الا بكتابة تلك القصة . كتبتها مختارا كالمضطر ، ولم يسألني احد كتابتها . ولكني في أحيان اخرى انتهز مناسبة أو فرصة تكليف بالكتابة لاعبر عما في نفسي أو في تفكيري بقصة . وكمثال على هذا قصة قطرات دم ، أولى قصص مجموعتي الاولى التي كتبتها لادخل بها مسابقة قصصية ، ولكني إنتهزتها مناسبة لاعرض فيها فكرة خاصة لي كانت تتردد في بالي منذ أمد طويل ولا تجد الوسيلة الى أن تبرز الى حيز النتاج الفني .

كما اسلفت ، لدي اشياء كثيرة تستحق ان تقال وأتوق الى قولها ، فتجاربي في الحياة كثيرة ، وما يقر في نفسي من بقاياها أو مما توحيه كثير كذلك . غير ان ضيق الوقت والمشاغل عند من هو غير متفرغ الى الكتابة مثلي تحول دون تسجيل ما تثيره تلك التجارب في النفس. وتأتي تكليفات الاصدقاء، وانا ضعيف أمامها ، فأكتب إستجابة لها ما لم أنصرف الى كتابته مختارا . ولذا فانى مدين لاصدقائي بظهور معظم ما كتبت الى حيز الوجود ، مقالات وقصصا وحتى الرواية الاولى التي كتبتها منذ سنين والثانية التي انتهيت من كتابتها مؤخرا .

ان هؤلاء الاصدقاء ، بتكليفاتهم التي اضيق بها في البدء ثم اسعد بها في النهاية ، هم بعض حوافزي الى الكتابة، استطيع اضافتها الى حوافزي الاولى التي ذكرتها فيما سلف .

ـ لماذا اخترت الاداء القصصي ؟

هل اخترت انا الاداء القصصي حقا ؟

من الدراسة البيبلوغرافية التي قام بها مؤخرا الاستاذ مصطفى شحادة، محصيا ما وقع تحت يده من نتاجي الادبي المنشور حتى منتصف هذا العام ، تبين لي ان مجموع ما نشر لي من القصص ، فيما عدا روايتي الطويلة باسمة بين الدموع ، قد بلغ ٧٥ قصة . بينما ظهر لي منشورا في هذه الفترة نفسها نحو من ٣٥٠ مقال وحديث ومحاضرة في الادب والسياسة والعلم ، عدا

القصائد الشعرية . اذن فان مجموع نتاجي في القصة لا يتجاوز ربع ما كتبت بصورة عامة . ومع ذلك فان كثيرا من القراء ، ولا سيما من المتعلقين بالادب ودارسيه ، يعتبرونني قاصا قبل كل شيء . لماذا ؟

ربما لان القصة اصبحت ، كما رددت في مناسبات عديدة . تمثل محصلة الفنون الادبية في هذا العصر . وربما لان التفوق فيها ليس امرا ميسورا لكل كاتب . وربما لان المقالة والمحاضرة تتعلقان في الغالب بظرف محدود وتتوجهان الى جمهور معين ، بينما تكتب القصة لكل القراء في كل الازمان . أو ان ذلك لكل هذه الامور مجتمعة .

هذا عن قرائي . اما عني انـــا ، فاني لا اجد اني تعمدت اختيار الفن القصصي ، عازفا عن فنون الادب الاخرى . لقد قلت بأن الكتابة هي احدى وسائل التعبير عما في نفسي ، واضيف كذلك أن القصة هي واحدة من طرائق الكتابة المعبرة عما في النفس . وأنا أختار القصة مرة لعوامل معينة تستدعي اختيارها ، واختيار غيرها مرات لعوامل أخرى غير العوامل الاولى .

حين كنت اسأل عن احب الوان الادب الى نفسي كنت اقول ، ولا أزال على قولي ، اني احب الشعر اكثر من غيره واتأثر به اكثر من غيره . بدأت شاعرا ، اضع في الشعر الذي انظمه أعمق تأثراتي . وكان الشعر يتسع لاحتواء تلك التأثرات في البدء ، ثم اخذ يضيق عنها حين ازدادت تجربتي في الحياة وتنوعت مؤثراتها في وتعقدت ، فبدأت انصرف الى القصة . لا بد من الاعتراف بأن شيئا من اسباب ذلك الانصراف يرجع الى قصور في موهبتي الشعرية . غير أن ضيق الاهـــاب الشعري عن احتواء التجـــارب المعقدة والمتعمدة في عصرنا هذا أمر لا شك فيـــــه . لمس ذلك الشعراء الموهوبون انفسهم . وفي رايي ان الثورة على الضوابط القديمة للشعر العربي في السنين الاخيرة هي مصداق لما أقوله. أحس الشعراء بعجز الشعر وراحوا يحطمونها، فكانت من هذا اشكال الشعر الجديدة . الا ان هذا التحطيم لم يحل المشكلة حلا كاملا ، بل ربما اضاف اليها عناصر جديدة . القضية ترجع الى انه يراد من الشعر ان يحمل ما هو فوق طاقته ...

أعود الى القصة واختياري لها . لقد وجدت فيها الوعاء الشامل الذي أستطيع ان اضع فيـــــه الشعر والسياسة والفلسفة والتطلعات العلمية . وكثيرون من كتاب هذا العصر هجروا الشعر الى الفن الروائي فانا اتبـــع في هذا هوى العصر متأثرا بالمؤثرات التي خلقت هذا الهوى . الا أن هذا لا يعني ان ايثاري للقصة هو مجرد اتباع للزي السائد . فما من شك في أن الموهبة

القصصية موهبة اساسية عندي . اكتشفت ذلك حين رجعت الى اعمالي الادبية الاولى فوجدت انني حتى في القصائد كنت اعبر عن عاطفتي ، في الشعر بطريقة قصصية . وفي مقالاتي التي اكتبها يندر ان تمر واحدة دون ان تبدا بحكاية أو تنتهي بحكاية او تحتوي حكاية . بل اني في احاديثي مع الناس ، وفي توضيحاتي التي اسوقها لمرضاي عن حالتهم الصحية ، استعين دوما بالقصة لاجسد لهم الواقع المجرد في الامور . بدا ذلك استعدادا ثم اصبح عادة متمكنة . اذكر مرة أن رئيس تحرير مجلة الآداب طلب مني المشاركة بمقال عن الفن في عدد كان يريد اصداره عن الفنون من المجلة ، فكانت مشاركتي بكتابة قصة « الحب والنفس » ، التي بسطت فيها عن طريق القصة آرائي المقارنة في اعمال عدد من الفنانين البارزين من الذين تناولوا موضوع « أمور وبسيشة » تناولا فنيا بالتصوير والنحت . . .

استطيع اذن أن أقول اني اختار الاداء القصصي، حين اختاره، لموهبتي فيه ! ولشمول القصة وقدرتها على الاستيعاب ، ولانها اكثر الوان الادب تماشيا مع روح العصر الذي نعيش فيه .

— تحمل كتاباتك الروائية في الغالب شيئا من الحرص على تصوير نماذج انسانية ، لا توصف بالحياد بل توحي بأن لك موقفا معينا له أبعاده السياسية أو الاخلاقية . . الخ . فهل هذا صحيح ؟ والى أي حد ترى أن عجز القصة القصيرة عن تصوير النموذج هو الذي يبرر اللجوء الى الفن الروائي ؟

— في مفهومي ، او في طريقتي الشخصية ، ان الرواية يجب أن تصور قطاعا من الحياة بكل ما يمكن هذا القطاع أن يحتويه من العناصر وتفاعلاتها فيما بينها . اما القصة القصيرة فهي تصور حادثا محددا ، أو تركز على لحظة معينة ، مثل كتاباتي الروائية قد صورت نماذج انسانية واضحة المعالم ، والفرق في ان هذه النماذج مصورة من ناحية محددة في القصص القصيرة بينما هي موضوعة من كل نواحيها في العمل الروائي ، او على الاقل في اكثر من ناحية من نواحيها . في القصة القصيرة اسلط الضوء على الجانب السياسي ، وحده ، أو الفكري وحده ، أو العاطفي وحده من البطل . اما في الرواية فالبطل معروض للضوء من كل جوانبه ، السياسية والفكرية والعاطفية ، مع تفاعلاته بعوامل البيئة التي يعيش في احضانها والزمن الذي تدور فيه احداث الرواية ومن هنا يبدو النموذج الانساني في الرواية اكمل واكثر انسانية ، في قوته وفي ضعفه .

وفي ظني كذلك ان كل النماذج التي تحتويها قصصي ، في القصة القصيرة

او الرواية ، هي نماذج غير محايدة ، لها مواقفها المعينة سياسيا او فكريا او اخلاقيا . أما ما يعدل بي عن كتابة القصة الصغيرة الى كتابة الرواية فهو ليس عجز الاولى عن تصوير النماذج بل الرغبة في الشمول . ومع ذلك فاني لا استطيع تحقيق رغباتي في هذه الناحية مهما كانت قوية في نفسي . ان عامل الوقت وطراز حياتي الخاصة هما اللذان فرضا علي" ان اكون مكثرا في القصة القصيرة ومقلا في كتابة الرواية . قد يبدو هذا غريبا ، الا انه الواقع فحياتي اثناء اقامتي في بلدتي مستغرقة بالعمل الطبي وبالمشاغل المحلية المختلفة ، وايامي مقطعة بالاسفار ، وهذا لا يترك مجالا لنفسي ان تظل هادئة او سائرة على وتيرة واحدة وهو ما تحتاجه لتنتج عملا ادبيا طويل النفس كبيرا مثـل الرواية . لذا فاني استسهل كتابة المقال التي تتم بسرعة ، او كتابة القصة القصيرة التي تتم في ايام قليلة يمكن ان اجد فيها لنفسي جوا قريبا من التجانس.

ويبدو ان الرغبة في الشمول ، تلـك التي ذكرتها فيما سبق آخذة في التزايد في نفسي على الرغم من انتفاء الفرصة لتحقيقها عندي . وحين لـم أستطع أن أجد من وقتي ومشاغلي ظروفا تتيح لي كتابة الروايات التي تعج بعناصرها وأفكارها خواطري ، أخذت أطيل من قصصي القصيرة يوما بعد يوم ، سائرا بها الى شكل وحجم يقعـان بين القصص القصيرة حقا وبين الروايات الحق . لقد لاحظ قرائي هذا ، وربما قبل ان أنتبه اليه انا نفسي ، الى درجة اني قرأت لبعضهم ما يفيد انه أصبح يخرجني من سلك كتاب القصة القصيرة حين وجد ما أكتبه قد خرج عن المقاييس الكلاسيكية، او النيوكلاسيكية للقصة القصيرة .

ـ على الرغم من اخلاصك للعمل الادبي المحض ، فانت من جيل طرحت عليه منذ البداية مشكلة الانتماء ((الفكري العقائدي ، الخ ...)) ولا سيما انك شاركت في الحياة السياسية اكثر من مرة ، وكتبت كثيرا في شيء مـن الالتزام بموقف ، فالى اي حد تعتبر نفسك منتميا او ملتزما ؟ وما هو انعكاس ذلك على تجربتك الفنية ؟

ـ لا اكف عن القول بأن الكتابة هي احدى طرائق تعبيري عن نفسي وعما في نفسي . انها تتكامل مع طرائق التعبير الاخرى ((السلوك ، العمل المعاشي ، المعاناة السياسية)) لتعطي صورة نفسي كما هي في حقيقتها ، كما انها تنم عن خصائص هذه النفس وزاياها ، مثلما تنم عن عيوبها .

لقد نفرت دوما من التقولب ، اعني من صب نفسي في قالب جاهز من صنعي انا او من صنع غيري . كما حرصت دوما على حريتي الشخصيـة في

التفكير مثل حرصي عليها في السلوك. وهذا لا يعني اني كنت شاذا او فوضويا او بعيدا عما يهم الآخرين . كما أن هذا لا يعني اني اجد هذه الطريقة هي المثلى للناس كلهم وان عليهم كلهم ان يتبعوها . ولكني وجدتها متلائمة مع استعداداتي النفسية ، كما وجدت ان حسن حظي هيأ لي ظروفا تمكنني من مماشاة هذه الاستعدادات في حين أن كثيرين غيري يقسرون في الحياة على سلوك انفسهم في مسالك معارضة لما يحبون او يشتهون او لما هم له مهيئون.

لقد ادت خصائصي النفسية التي كانت تتظاهر في سلوكي الشخصي مثل تظاهرها في كتاباتي الى سوء تفاهم ، او سوء تفهم من الآخرين نحوي . حين كان اليمين غالبا في بلادنا ، مثلا ، كنت ارى يساريا وحين غلب اليسار رآني كثيرون يمينيا . ومرد هذا الى ان الغالب يستنكر أن يكون غالبا ولا ينضم كل الناس الى لوائه ، غير مصدق بأن فردا ما يستطيع أن يستقل بنفسه عن التبعية المطلقة لما هو سائد ، فتكون له أفكاره الخاصة وان كانت غير معارضة للافكار السائدة . وعلى الرغم من ان نتاجي الادبي ، دعك من أعمالي الشخصية ، قد حملت من العناصر القومية والتقدمية البناءة ما هو أقوى بكثير مما حواه نتاج كثير من كتاب الجيل الحاضر ، فان أحكام بعض من يتولون النقد أو التقييم تحاول التشكيك في مواقف مبدع هذا النتاج ، والسبب يرجع الى أنه لا يرفع عقيرته بشعار معين ، أو انه يتخلف عن الانتساب لتنظيم معين ، وأحيانا لتباعده عما يراه غير لائق بقيمة الفكر غير متناسب مع حراجة المواقف القومية .

اسف لاضطراري الى ايراد هذا الكلام الذي يتعلق بنواح جد شخصية ، ولكن طبيعة السؤال الموجه استوجبته . والواقع انني آمنت ، منذ تكونت شخصيتي ، بقيم معينة ظللت مخلصا لها في التفكير والعمل . آمنت بالانسان وآمنت بالامة التي انا منها ، وارتبطت واقعيا وأدبيا بما آمنت به . هذا الارتباط أصبح في السنين الاخيرة اسم معين ، أصبح يسمى الانتماء والالتزام. اذن فانا منتم وملتزم لهاتين القيمتين الكبيرتين قبل كل شيء : الانسان ، وأمتي العربية .

لقد اصبح مقبولا ، بعد ان ظل ذلك مستنكرا حقبة من السنين ، ان نقول ان كل أديب مخلص لفنه هو ملتزم في ما يبدعه ، من ابي نواس وأبي العلاء الى أوسكار وايلد ونيشتيه وهربرت ج. ويلز . هذا صحيح لان الالتزام ليس مقتصرا على التفكير السياسي وحده ، فقد يكون الكاتب ملتزما لمذهب علمي أو جمالي او سلوكي . واحسب اني في قصصي الطبية ، وهي اهم ما كتبته في

بداية انتاجي القصصي ، كنت شديد الالتزام لفكرة علمية معينة ، او انهـــا كانت فكرة ضد العلم اذا اردنا الدقة في التعبير . هـــذه الفكرة تقول بعجز العقل الانساني ، وعجز معطياته من العلوم السكولاستيكية ، عن الاحاطة بمجاهيل النفس البشرية . فكان جهدي في قصصي تلك ان ابين ضعف العقل وسليلة العلم في ادراك خفايا النفس ، او ابين فشلهما امام مشاكل الانسان الروحية والميتافيزيكية .

غير ان قولنا « ان كل كاتب مخلص لفكرته هو ملتزم » اذا كان حقا فهو ليس الحق كله في مجال الالتزام . ففي عصرنا الحاضر اصبح الالتزام انماطا مختلفة ، اهمها واكثرها خطرا هو الالتزام السياسي لانه يتصل في حال بعض الجماعات البشرية بسلامة هذه الجماعات وبقائها . وقد قلت مرة في احـــد احاديثي حول موضوع المثقف العربي والالتزام ما يلي : في عصرنا تكاد تكون مستحيلة عزلة المثقف في برجه العاجي . فالقضايا العامة من محلية وقوميـــة وانسانية تنفذ اليه مـــع خبزه اليومي . والمثقف العـــربي ، مثل كل مثقف في العالم ، مسوق الى الاهتمام بالقضايا الكبيرة والى اتخاذ موقف منها بل انه جدير بأن يكون اشد اهتماما من المثقفين الاخر بهذه القضايا الكبيرة ، لان انباء بعضها لا تفارق سمعه كل يوم ، وبعضها تقرع عليه باب داره كل لحظـــة مذكرة اياه بانها تعني بالنسبة اليه الحياة او الفناء ، والوجود او العدم .

فهل لي بعد ان اقول هذا ، وانا أؤمن به ، ان اكون غير ملتزم او ان يكون نتاجي الادبي بعيدا عن الالتزام السياسي بصورة خاصة؟ قطعا لا . الا قصر النظر عند بعض الناس يجعلهم يظنون ان لا التزام الا الالتزام بوجهة نظرهم هم او الالتزام بما يقولونه هم ، ولو كان ما يقولونه معبرا عن آراء غيرهم او كان موحى اليهم ايحاء .

في احد قصصي يرد بطلي محنته التي هو فيها الى انـــه التزم بالوطن بينما يريد منه الآخرون ، ومن بينهم رؤساؤه ان يلتزم بالشعب . في الظاهر يبدو الفرق ضئيلا . غير ان البطل يبين ان الفرق جوهري ، فيقول في المحاكمة التي عقدت له ما يلي : « ان الوطن هو القيمة المعنوية للكمية المادية التي اسمها الشعب ... في صبانا وفي فتوتنا وفي شبابنا تعلمنـــا وعملنا على ان نضحي بغايات الافراد وبحياتهم في سبيل سلامة الوطن وحريته وعلائه ... فلو ان انسانا عرض علينا ان يبيعنا رفاه الافراد ، وهم الشعب ، وأمنهـــم وسلامتهم بثمن يقبضه من مثلنا العليا ومن قيمنا الروحية لصفعناه على وجهه ورددناه خاسئا مدحورا » . هذا ما يقوله بطل تلك القصة . وحين اعود الى

خصائص التزامي شخصيا اجد ان مفهوم هذا البطل للالتزام قريب من مفهومي أو انه اضيق قليلا . الالتزام في نظر الكثيرين هم التزامهم بقضية الشعب . وسيدهش هؤلاء الكثيرون من جراتي اذا قلت لهم ان التزامهم لا يعجبني . لماذا ؟ لاني ارى الالتزام بقضية الشعب وحده التزاما ضيقا وموقتا ومحدودا ، والالتزام المطلوب منا هو التزام أوسع ، التزام لا بقضية الوطن فحسب ، بل بقضية الامة ! ففي رايي ان الشعب هو القيمة الحاضرة ، الموقتة ، بينما الامه هي القيمة الدائمة والمطلقة. الانسان العربي ليس انسان اليوم فقط لكي نحصر اهمامنا في غذائه ومسكنه وصحته وتعليمه ونضحي لهذه القيم بكل شيء ، بل هو انسان الامس واليوم والغد معا ، يجب أن نهتم الى جانب قيمه المعاشية بقيمه المعنوية وبديمومته كفرد من امة يجب أن تظل خالدة اذا امكن لمجموعه بشرية ان تكون خالدة ».

ان ابطال قصصي ، فيما ارى ، قد تحركوا ضمن اطار هذه الافكار في تحريهم الكرامة الانسانية ، وفي دفاعهم عن الحرية ، وفي موتهم في سبيل ارض الوطن وغايات الامة ، مترفعين عن الغايات المعاشية متباعدين عن شفاء الاحن والحزازات الضيقة ما دامت الامة في معركة ضارية أمام أعداء وضعوا نصب اعينهم القضاء على وجودها، وكسبوا الجولات الاولى في هذه المعركة.

ـ ما هو رايك في التيارات الجديدة لكتابة القصة القصيرة والرواية في الادب المعاصر ، وتأثيرها في تجارب الاجيال الادبية الجديدة منذ الستينات ؟

ـ حين يتغير كل شيء في العالم ، يتقدم أو يتطور أو يثور ، فمن غير المعقول أن يظل الادب ، ومنه القصة والرواية ، جامدا . كان لا بد من ان تظهر تيارات جديدة في الكتابة القصصية ، وظهورها ناجم عن تغير عناصر البيئة التي يستقي الكاتب منها قصته ، وعن بحث الكاتب عن طريقة جديده لتعبير ، وعن طموح الكاتب الى التفوق بالاتيان بما لم يأت بـه الاوائل . ولست من الذين يحكمون بالهرطقة على كل مجدد ، وانما أحكم على الجديد بقدر ما يكون مفيدا ، اعني ذا قيمة فنية وانسانية .

والذي يجب ان لا نغفل عنه ان ليس سهلا على التيارات الجديدة ان تكون متفوقة اذا كانت شديدة الشذوذ عن مجاري التيارات القديمة . فما هو ملاحظ ان مدرسة « الرواية الجديدة » ، كما أطلق عليها في الغرب ، تبتعد ابتعادا كبيرا في طريقة التعبير عن المدارس السابقة للرواية ، التي تغيرت جيلا بعد جيل في مضمونها الفلسفي او الجمالي او الاخلاقي ولكنها اتخذت طرائق تعبير بطيئة التطور على مدى الاجيال المتعاقبة . وربما ترجع صعوبة

تفوق التيارات الجديدة على التراث الذي اصبح كلاسيكيا الى أن النتاج الادبي شديد اللصوق بالنفس الانسانية ، انه من معطيات النفس الانسانيه، والنفس الانسانيه لا تتطور بقفزات ، او انها تكاد لا تطـــور ابدا . معطيات العقل الانساني، من علم وتطبيقات تكنيكية ، تسير دوما الى افضل ، بينما تظل معطيات النفس الانسانية قريبة من محاور انطلاقها ويظل المتفوق مـــن انتاجها متفوقا لا تبلى جدته بتعاقب الازمان .

هذه بعض التفسيرات التي اقررها لنفسي حين اكتشف عجز ما اقراه من نتاج التيارات الجديدة عن انتزاع اعجابي ، مثلما يفعل المتفوق من النتاج المالوف . اذكر اني في الشتاء المنصرم قرات فترتين متعاقبتين روايتين حديثي النشر ، اعتبرنا وقت ظهورهما من خير النتاج الادبي العالمي ، الاولى رواية سيلبي « آخر مخرج الى بروكلن » ، والاخرى رواية سولجنستين « الدائرة الاولى » . قرات « الدائره الاولى » مشدودا اليها من الصفحه الاولى الى الاخيرة ، واعجابي بها يتزايد كلما تقدمت في القراءة . أما رواية سيلبي ، التي تتخذ بعض أساليب التيارات الجديدة في التعبير وفي المضمون ، فبهرتني في اولها ، وفي بعض مقاطعها ، ثم لم البث حتى صرت اقفز صفحاتها متخطيا سطورا منهـــا دون قراءة ، ولا سيما في اقسامها الاخيـــرة حيث قاربت في كتابتها الهذيان .

هذا بصورة عامة حكمي على نتاج التيارات الجديدة : يستطيع أحيانا أن يبهر بقوة ، ولكن ضوءه الباهر لا يستطيع ان يظل دائم السطوع ، أو انه لم يصل حتى اليوم الى المنزلة التي تجعله كذلك . أترى حكمي هذا موضوعيا ام لاني نشأت وترعرت على تذوق النتاج المألوف اصبحت عاجزا عن ادراك قيمة التيارات الجديدة ؟

هذا الذي قلته قصدت به التيارات الجديدة في الادب المعاصر ، والعالمي وهو ينطبق مع بعض الفارق على تيارات ادبنا المحلي الجديدة . والفارق يأتي من ان التيارات الجديدة في الادب الغربي خلفت اعمالا ادبية قديمة راسخة ، عملت فيها سنة الاصطفاء فأبقت على الافضل وعفت على الضعيف . اما ادبنا العربي المعاصر فانه لم يكد يبلغ مرحلة النضج حتى تعرض للتيارات الجديدة فيه ، بعضها ظهر بتأثير الظروف التي استلزمت ظهوره ، وبعضها نشأ عن تقليد ما وجد عند الآخرين . في تياراتنا الادبية الجديدة أشياء كثيرة مبهرة كتلك التي تحدثت عنها في مثيلاتها من الادب العالمي ، فهل تستطيع الصمود والتمكن ثم الاستحواذ على قلوب جماهير القراء وعقولها ؟ هذا يعتمد عـــلى موهبة

روائيينا الجدد وعلى قدرتهم في نقل تطورات الحياة الجديدة ومؤثراتها فيما يكتبون . ولكن الى اي مدى ستبلغ قوة انتاجهم ويبلغ انتشاره ! قرأت مرة في تصريح لالآن روب — غرييه ، وهو أحد زعماء الرواية الجديدة في فرنسا وفي كل العالم الغربي ، أن رواياته لا تطبع أكثر من ثلاثة آلاف نسخة . هذا في بلد تطبع الروايات المألوفة الناجحة فيه مائة الف نسخة وقد تتجاوز نسخها نصف مليون . فكم عدد النسخ التي تطبع بها رواية من روايات التيارات الجديدة في أحد بلادنا العربية اذا كانت مجموعة القصص الكلاسيكية الناجحة في هذه البلاد لا تطبع في أكثر من ثلاثة آلاف نسخة ؟

— كيف ترى المرحلة الراهنة من حركة الفن القصصي في القطر وفي الوطن العربي ؟ الى أي حد تؤدي مهمتها الفنية والاجتماعية ؟ وبالقياس الى الفنون الادبية الاخرى ؟ وعلى الصعيد العالمي ؟

— فيما يتعلق بالقصة القصيرة أجد المرحلة الراهنة مرضية ، من الرضى لا من المرض ، بل ومثيرة للاعجاب ، في قطرنا وفي الوطن العربي . اقرا في المجلات قصصا كثيرة وناضجة ، وان كان الميدان لا يخلو من الغث أو من وجود التجارب المبتسرة أو المصطنعة . أصبحت القصة عند كتاب هذا الجيل أكثر صدقا منها في محاولات الاجيال السابقة ، حين تخلصت من الفوغائية ومن استدرار عطف القراء بالتباكي على العيوب الاجتماعية . وهي في هذا افضل من الشعر ومن المقال . المقال اصبح مجندا لشرح وجهة نظر احكام تارة ومدغدغا لاحاسيس الجماهير تارة ، أو تحول الى دراسات متحذلقة تحتوي أفكارا عسرة الفهم ترسم أحزان قائلها التي قل أن تؤثر في مشاعر الآخرين . ولا اذكر المسرحية في هذا السياق ، لضعف اتصالي بها ولانها أصبحت في المسرح الحديث أداة تعبير سمعية بصرية ليس الادب الا عنصرا واحدا من عناصرها المتعددة .

هذا ما اراه في موضوع القصة القصيرة ، أما الرواية فنحن فيها مقصرون مع ان الحاجة اليها أشد في اداء ما سميته مهمة فنية واجتماعية . ربما كان التقصير يعود في بعضه الى الروائيين ، غير اني أعتقد ان اغلب التقصير يعود الى أن الجمهور العربي لم يخلق المناخ الصالح لظهور روائيين كبار وروايات متفوقة . الجمهور العربي لا يزال قارىء مجلة ، لم يبلغ بعد أن يكون قارىء كتاب . لا تزال ما تخرجه المطابع لاستهلاك هذا الجمهور من الروايات محدودا ولذا فان الجيد منها يظل قليلا . ففي وضعنا الادبي الذي تفرضه نوعية القارىء العربي ، لا يمكن للاديب أن يثبت قدمه في ميدان الادب الا بظهور

اسمه مستمرا في الصحف التي لا تتسع لاكثر من مقال او قصيدة أو أقصوصة. وكما تعرف يظل الاديب متطوعا للكتابة ، أعني كاتبا غير محترف، سنين طويلة من عمره اذا لم يستمر في هذا التطوع كل عمره ، وهذه الكتابة المجزاة المنجمة تتناسب مع هذا التطوع الاضطراري . اما كتابة الرواية فهي تستلزم من الاديب انصرافا جديا ومستمرا يقارب الاحتراف . على الكاتب أن يعطي الرواية نصيبا لا يستهان به من وقته ، فاذا كان غير واثق من امكانية نشر ما يكتبه في هذا المجال ومتخوفا من عدم سيرورته بعد النشر ، فانه قد يكون قد غامر بوقته وجهده وابداعه الفني . لهذا تجد الروائيين عندنا معدودين على الاصابع .

هذا التقصير في انتاج الرواية كمية ونوعية من اهم العوامل التي جعلت مكانتنا الادبية على الصعيد العالمي في منزلة دنية . الادب العالمي أدب كتاب ، والقراء العالميون قراء رواية لا تجذب أنظارهم القصة القصيرة الا اذا كانت خارقة . وقد ترجم العديد من قصصنا القصيرة في طبعات انتولوجية ، اعني في طبعات المنتخبات ، ولكنها لم تدخلنا في الحركة الادبية العالمية . في حين أن رواية عربية واحدة لو ترجمت الى لغة رئيسية ، ولا اتحدث عن التراجم المدرسية أو الدعائية ، لكانت قادرة على أن تعطينا في الادب العالمي اسما وتصنع لنا مكانة . وهذا ما لم يحدث حتى الآن .

ـ كيف تكتب ؟

ـ منذ بداياتي عرف عني اني قادر على الانتاج في كل الالوان الادبية في يسر وسهولة . ومبعث ذلك ان لديّ ، كما أسلفت ، دوما ما يستحق أن يقال من أفكار واحاسيس ، فاذا وجدت المناسبة ووجدت الوقت كتبت ما اريد دون حاجة الى عناء التقصي عن الموضوع . واذا كانت مناسبات الكتابة قد تزايدت منذ بداياتي الى اليوم ، فان الوقت الذي املكه للكتابة أخذ بالتناقص بتمادي الزمن . بمرور الايام كثرت المشاغل والمسؤوليات وكثر المعارف وتشابكت العلاقات الاجتماعية ، وهذه كلها أمور تعطي نفسها الاولوية على الخلق الادبي الذي اعتبرته ، ولا ازال اعتبره هواية لي مع اني أعطيه من الاهمية والعناية ما يتوازى مع ما أعطيه مهنتي او مسؤولياتي الاخرى .

قل ان اخط سطرا في رحلاتي واسفاري ، وهي عادة تأخذ ما يفوق الثلث من كل عام يمر بي وحين اقيم في بلدتي فان عملي يأخذ مني كل النهار وبعض الليل ، فلا يتبقى لي غير ساعات قليلة قبل النوم اقسمها على القراءة والكتابة، اذا لم تلتهمها مني مناسبة اجتماعية او يختطفها مريض مستعجل . في

هذه الساعات القليلة والمتفرقة انتجت كل انتاجي الادبي في الاعوام العشرين السالفة ، بعد ان تقننت حياتي واتخــــذت في سيرها خطا قليل التشعث والاضطراب .

ان كثيرا ممن يعرف طراز حياتي في بلدتي وفي عملي يسالني متعجبا : متى تستطيع الكتابة ، وكيف تستطيع الكتابة ؟ وانا نفسي اشارك في العجب احيانا . ولكن تفسير انتاجي الغزير على رغم ضيق الوقت وتعدد المشاغل يرجع الى سهولة انصرافي الى اي عمل اضع تنفيذه في عزمي . ومع اني بعيد عن فكرة الكسب المادي ، فان لي قدرتي على اعتصار كل دقيقة تمر بي وان استفيد منها ما يستفاد . قلت مثلا اني في اسفاري لا اخط سطرا ، وانا أعني اني لااكتب على الورق شيئا حين أسافر ، ولكني حين أسافر مثلي حين أعمل او الهو ، اكتب في ذهني وأكدس المواضيع والذكريات التي تنبجس حروفــا سوداء على الورق الابيض ساعة ما أفرغ لها . وتكفي أحيانا لمحـــة في طريق أو كلمة أسمعها من عابر لتخلق في نفسي عالما نابضا بالحياة قادرا عــــى التحول في يوم ما الى قصة أو الى فصل من رواية .

اما اذا سألتني كيف أكتب وانت تعني كيف أحول هــذه الكلمة وتــلك النظرة الى عالم متكامل ، له أشخاصه وأحداثه وقضاياه ، فاني عاجز عن الاحاطة بكل دقائق هذا التحويل ، كما اني أفضل أن لا اتقصى هذه الدقائق . وقد قلت في مناسبات متعددة انه من المعنت أن تطلب من الكاتب أن يتقصى دقائق الابداع في فنه . كانك بذلك تطالب سائرا على قدميه أن يجزىء حركاته في سيره الى دقائقها ، فيفكر بأية قدم يبدأ السير واي يد يرفقها بالقدم حين المشي ، واية عضلة يقلصها إذا ما رفع القــدم أو هز اليد ... انك بذلك ستربك السائر أو تنتهي به الى التعثر أو الوقوع .

ــ ثمة محاولات في النقد تعتبرك قاصا واقعيا ، ما رايك في هذا ؟ وما هي أهم ملامح الصيغة الفنية التي تعبر بها عن تجربتك ؟

ــ هذا السؤال يدخل في ما اشرت اليه قبل قليل ، أعني إنه يصلح لان يكون محاولة لارباكي وايقاعي ، ومع ذلك فاني سأجرب أن اتقصى في دقائق عملي الفني دون أن أتعثر أو أقع .

هل أنا قاص واقعي ؟ للنقاد احكامهم الخاصة ، اما أنا فاني في عملي الادبي لا أدري أين ينتهي الابـــداع « الرومنتيك » واين تبــــدا الواقعية « الريالسم » . في مستهل هذه الاجابات ذكرت ان شكل ما اكتبه واقعي ، ولكن مضمونه ربما كان خياليا أو مثاليا أو لا معقولا . والذي الاحظه اني اجهد دوما في كتابتي في ان اقنع القارىء بأن ما هو مستبعد الحدوث ممكن أن يحدث

بل انه حدث حقا. وانا اوفق في هذا كثيرا ، واعتقد ان هذا التوفيق هو احد الجوانب المهمة لمقدرتي كقاص . فالقارىء يتقبل دوما ما ارويه مقتنعا بأنه ليس قصة ملفقة بل هو واقع ، وكثيرا ما ينسب هذا الواقع لي ، اعني انه يتصور انه وقع لي شخصيا . قصصي العاطفية ، حتى ما لم يكن مرويا منها بضمير المتكلم ، هي في نظر قرائي أحداث جرت لي انا حقا . وكذلك القصص ذات الاطار الطبي اوالسياسي . أما القصص البدوية الاجواء فهي اما قد جرت لي أو لاهلي. وقد سببت لي هذه النسبة، وكثيرا ما كانت في غير محلها، مشاكل عدة ، ومع ذلك فانها كانت ترضيني لانها تبين لي نجاحي في اقناع القارىء بما اقصه ولو كان غريبا أو بعيدا عن الواقع . اذن فانا من هذه الناحية قاص واقعي .

هذه الواقعية هي واقعية اسلوب فحسب . وهي تبرر حكم الناقد الذي ضمني الى زمرة من يعالجون المادة الرومنتيكية بطريقة واقعية بين الكتاب . وهو حكم صحيح جزئيا ، أو انه صحيح صحة ظاهرية فقط . فكثير مما تحويه مجموعاتي القصصية منذ أول انتاجي الى اليوم يتخذ اسلوبا يبتعد عن الواقعية في مجمله وان قاربها في جزئياته . أضرب لذلك مثلا قصتي الحمى ، وقيم الموتى ، من قصصي الاولى ، وفارس مدينة القنطرة ، والعراف ، من قصصي الاخيرة . وحتى في أكثر قصصي واقعية في مظهرها يجد المتلمس ان وصفي بالواقعية المطلقة قابل للطعن . وهذا يبرز ما قاله ناقد آخر مستدركا على حكم زميله الاول . قال هذا الناقد الآخر اني في بعض أعمالي قدمت موضوعات واقعية باسلوب واقعي ملحمي وررومنطيقية شديدة الاخلاص والاقناع .

والذي اراه انا ان بي ميلا عميقا الى الجمع بين النقيضين ، أو الى السير من النقيض الى نقيضه . السير من الواقعية الى المذاهب الاخرى ، ليس الرومنتيكية وحدها ، ومن تلك المذاهب الى الواقعية . أحاول تقريب الخيالي او المثالي أو اللامعقول بمعالجتي الفنية حتى اجعله واقعيا ، وأعالج الواقعي فاجعله خياليا أو مثاليا . وقد لاحظت من نفسي ذلك في قصصي القومية . وفي القصص الفلسطينية بصورة خاصة . في هذه القصص الاخيرة التزمت في اكثر الاحيان ان اتمسك بالوقائع الصحيحة من ذكرياتي في ايام الجهاد في فلسطين ، فلا اتزيد فيها ، في محاولة مني للابتعاد عن الزيف في قضيتنا العظمى . الا ان اسلوبي في رواية هذه الوقائع الصحيحة كان ينتهي دوما الى سربلة ابطال هذه القصص بأوشحة رومنتيكية او مثالية . شخصيات « كفن حمود » و « بنادق في لواء الجليل » ، والقصص الفلسطينية الاخرى شخصيات حقيقية ليس في وصفها تزيد او مغالاة ، ولكنها اصبحت شخصيات

مثالية بفعل هذه الخاصة التي وصفت من خصائص اسلوبي في « رمطقة الواقعي وتوقيع الرومنطيقي » ، اذا استطعت ان انحت هذه الصيغ من كلمتي الواقعي والرومنطيقي .

واعود في آخر هذا الكلام فاكرر ما قلته من اني في عملي الادبي لا أدري اين ينتهي الابداع واين يبدأ الواقع . بل اني اتساءل اين تنتهي الرومنطيقية والمثالية واين يبدأ الواقع في الحاة كلها ، ولا سما بالنسبة الى انسان مثلي مر بألوان التجارب ولامس الوان الثقافات وخاض بفكره ، واحيانا بشخصه . غمرات أهونها قادر على غمره الى قمة رأسه ؟! كلما عدت بخاطري الى تجربتي الفنية أجدني كنت مسوقا في اداء ما اديته فيها ، وبدون وعي واضح مني ، بفكرة متغلغلة في اعماقي . انها فكرة التناقض الذي اعي وجوده بين قيمة الانسان النفسية وقيمته المادية ، او قدرته المادية . وهي ، اعني هذه الفكرة ،تدس نفسها في كل ما اكتب او اني احاول التعبير عنها بمختلف الاساليب في ما اكتب . هي الصراع بين احساس الانسان بكرامته كمخلوق عاقل شاعر في كون من العجماوات والجوامد وبين وعي هذا الانسان لضعفه في تركيبه الحيواني امام تلك العجماوات والجوامد وبين وأمام ما تتسلط به عليه . كل مآسي أبطالي تأتي من هذا وكذلك كل عظمتهم ، وكل غرابة حوادثي تتصل بهذا وكل واقعيتها كذلك .

بلدي وأهلي...
أحملهما معي أينما توجهت

حوار اجراه الاستاذ احمد محمد عطية ، في دمشق ،
ونشر في مجلة الهلال القاهرية ، عدد ديسمبر ١٩٧٧ .

— مع انك تجمع بين العلم والادب ، أو كما تقول دائما بأن الطب مهنتك والادب هوايتك ، الا أن بعض قصصك ترفض العلم ، بل الطب ، وتنحاز الى الخرافة ... ما هو تفسيرك لهذا التناقض ؟

— قبل أن اكون طبيبا ذا ثقافة علمية ، وقبل أن اكون كاتبا ذا نتاج أدبي ، انا انسان أملك النفس والعقل وهما طبعان ، بينما الثقافة مكتسبه سواء كانت أدبية أو علمية . وادراكي الذي يتضافر على تكوينه العقل والنفس يجعلني أنظر نظرة معينة ذات صفات خاصة الى الكون . هذه النظرة هي التي تجعلني قليل الثقة بالعلم . ان الحياة والوجود يحتويان امور كثيرة ، والعلم بشكله الحاضر ، رغم التقدم الذي بلغه في العصور المتأخرة ، لا يستطيع الاحاطة بهذه الامور أو تفسيرها التفسير الكامل ، دعك من السيطرة عليها . ومن هنا جاء تصويري أو ذكري للمغيبات أو للعوامل المجهولة . حين أكتب عن مغيب فانا لا أجزم وانما اورده كحالة شك في ما نسميه نحن معلوما أو علميا .

— لم تزل حتى اليوم الوحيد بين كبار ادبائنا العرب الـذي لم يفارق بلدته النائية ، الرقة . فالكل يقيم في العواصم ويتخلى عن بلدانه الاصلية . وأنت طبيب كبير ولديك امكانيات كثيرة تمكنك من الطواف حول العالم والعودة الى بلدتك الصغيرة في شمال شرقي سورية ... ما سر هذه العزلة النائية ، وهل هي ناتجة عن احباطات السياسة والجو الادبي في العاصمة ؟

— اقامتي في بلدتي هي ، في نظري ، الشيء الطبيعي . هناك واقع ، وهناك واجب ، وهناك ميل أو هوى لي في الاقامة في بلدتي . من ناحية الواقع ،

انا مولود في هذه البلدة ، واهلي فيها ، وهي التي غذتني وهيأت لي سبيل المعرفة واكسبتني خصائص معينة . وانا لا اريد أن اتميز عن غيري لمجرد اني كسبت شيئا من الثقافة ، فاهجرها واهجر اهلي . من ناحية الواجب ، بلدي، في ما اظن وما يقدر الناس ، بحاجة الى المعرفة التي اكتسبتها طبيا وثقافيا ، لانها في حالة تعتبر متخلفة بالنسبة الى المنطقة التي نعيش فيها ، اعني قطرنا السوري . فعلي اذن ان اسهم بالتخلص من هـذا التخلف ، أو بسد حاجة الناس الي كطبيب في بلد ندر فيه الاطباء ، وفي أول سني تخرجي بصـورة خاصة . من ناحية الميل والهوى ، انا من الذين ينطبق عليهم قول الانجيل في الدخول من الباب الضيق . أحب ان أمارس الحياة من نواحيها الصعبة لاني اشعر بقدرتي على أن أكون منتجا ومفيدا فيها وذلك يؤكد لي شخصيتي ويبرز وجودي ويجعل من امكانياتي امورا مفيدة . وقد تخطر في بالي احيانا صـور اغتراب أو هجرة ، وفي كثير من الاحيان تنصرف صور تلك الهجرة لا الى البلاد المتقدمة التي اعرفها كسائح معرفة جيدة ، بل تنصرف الى مناطق اكثر تخلفا والعيش فيها أصعب من البلد الذي أعيش فيه ... اواسط أفريقيا مثلا أو بقاعا مهجورة أخرى من العالم . اما البلاد التي تتوفر فيها الرفاهية وبسطة العيش وسهولته فاني أحب أن ازورها والم بها وان أعرف طراز الحياة فيها وطبائع أهلها ، وهذا ما أفعله دائما . ولكني حتى في تلك البلاد اظل احمـل بلدي معي ، أقارن وأتعرف وألتمس ما يمكن أن يفيد بلدي مما اراه ، وما هو في البلد الذي أزوره أفضل ، وما هو أسوأ ، مما في بلدي الشخصي .

أما عن السياسة واحتمال تأثري باحباطاتها في اقامتي ببلدي فهو سؤال غير وارد بالنسبة الي . فلقد عملت في السياسة ولكن كممثل لبلدي ، اذ كنت نائبا في البرلمان عنها ، وكنت وزيرا أحمل في نفسي وفي ادراكي وعملي المقومات والعقلية التي جئت بها من بلدي . في الاسبوع الذي تلا تركي للوزارة رجعت الى عيادتي ، واقول لك اني كنت مغتبطا بالعودة . كما اني لم اكن نادما عما تمت به سياسيا . وقد عرضت علي فكرة أن أكون سفيرا لبلادي في اجمـل الدول وأقربها الى نفسي ثقافيا وعلميا ، بعد خروجي من الوزارة مباشرة ، ففضلت يومها الرجوع الى عيادتي على فكرة القبول بتلك السفارة .

وفي ما يتعلق بالادب ، اظن اني قليل التأثر بعوامل اجوائه في حياتي . فالادب والسياسة ، وحتى الطب ، هي صور من شخصيتي كانسان . هذه الشخصية هي التي تؤثر في انتاجي وفي تصرفي في هذه الناحية او في تلك ، اما النواحي هذه نفسها فهي ذات تأثير ثانوي على تصرفي كانسان .

ـــ لك ديوان شعر وحيد ، لماذا توقفت عن ابداع الشعر ؟

ـ بدات شاعرا مثل كثير من الكتاب ، وحتى من المفكرين . فالشعر ولا سيما في دور الحيوية العاطفية هو اول ما ينتجه ذو النزعة الفنية . ولكن الحياة تستمر وتكثر التجارب وتزداد المعرفة وتتسع آفاق الثقافة ، فيجد الفنان ان الشعر يضيق عن اداء كل ما يريد ان يعبر عنه . كبار الروائيين في العالم كله بدأوا شعراء وانتهوا روائيين ، واذا كان بعضهم ظل ينظم الشعر ففي حالات خاصة وبصورة ثانوية . واستطيع القول اني بدات هذه البداية حين كانت مشاعري بسيطة ، وما اريد ان اعبر عنـــه قليل التعقيد ، وحين كانت تجاربي الشخصية والفكرية محدودة . حين اتسعت آفاقي وجدت اني أريد التعبير عن اشياء كثيرة لا يستطيع الشعــر ان يحتويها فانصرفت الى المقال والى القصة والى الرواية ... اضع في هذه وفي تلك احاسيسي كشاعر وتجاربي كسائح وطبيب وسياسي ، وتطلعاتي كانسان يريد الخير لمن حوله، وفلسفتي في القضايا التي اعمل فيها فكري .

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى وجدت اني كشاعر اصبح اكثر انانية واعجابا بنفسي مني ككاتب . الشاعر يدير احاسيسه بينه وبين نفسه امدا طويلا ، ويكرر قراءته لشعره لنفسه مرات كثيرة ، محملا اياه ما قد لا يحتويه هذا الشعر من احاسيس ومعان وجماليات ، وبذلك يضع نفسه مقدما عـــلى غيره . هذه تجربة لي شخصية ومشاهدة لي في من اعرفه من الشعراء ، ولي بينهم اصدقاء كثر . شبهت مرة اعجاب الشاعر بما ينظمه شخصيا ، ولو كان غثا ، بلقمة الخبز يلوكها الانسان في فمه مدة طويلة ... تكون اللقمة معدومة الطعم في البدء ، ومن كثرة اللوك والترديد تحلو في فم لائكها ، لانها من الناحية الكيميائية تتغير تركيبا من نشاء عديم الطعم الى مادة سكرية . وهذا مـــا يجري للشاعر حين يكثر ترديده شعره لنفسه ، وحين ديم الاقامة في جوه الشخصي الخاص . اما ككاتب فاني اظل اقرب الى انصاف نفسي وانصاف الآخرين لان العقل بموازينه يتدخل في الكتابة . صرت في المدة الاخيرة آنف ، او ابتعد ، عن ان اوصف بكوني شاعر ، لاني لا اجدني قادرا على الانحشار في زمرة الشعراء لا من حيث الانتاج ولا من حيث العقلية .

هذا لا يعني عدم اعجابي بالشعر وقلة حبي له. اني بالعكس اجده اجمل الانواع الادبية . اقراه كثيرا واحفظ منه كثيرا . ولا ازال ، بين الحين والحين ، انظم لنفسي بعض القصائد التي قلما اطلع عليها الناس ، باستثناء اصدقائي وفي مناسبات نادرة .

ـ انت تكتب القصة بالشكل التقليدي وتحرص على طابعها الموباساني

بتقديم الغريب والشاذ . هل هو رفض للتجديد ؟ وما هو تبريرك لهذا الشكل القصصي القديم الذي تجاوزته القصة القصيرة منذ زمن طويل ؟

ــ الشيء الاساسي عندي في الكتابة ، سواء كان قصة او مقالا أو محاضرة معدة ، هو ان اعبر عما اريده وان احسن التعبير والافهام عنه . ولست أهتم بالنوع او بالطراز الذي اكتب فيه . الجديد والقديم عندي يتساويان من ناحية القيمة ، اذا كان هذا وذاك قادرين على الافهام أو على التأثير الذي قد لا يترافق به افهام . بالنسبة لي اقدم الافهام على التأثير او اجعله طريقة للتأثير . لا اريد أن اضع القارىء في تأثير غير مفهوم . فاذا كنت لا ازال أتبع الطريقة التقليدية ، فذلك لاني وجدت هذه الطريقة ، التي يسميها النقاد هكذا ، هي المؤدية الى غايتي في التعبير . وانا بالعكس اتجافى عن الطرق التي تدعى جديدة ، لانها ليست طريقتي بل طريقة غيري . كما اني اجد مجالا للوم الذي يركضون وراء كل ناعق لمجرد انه ينعق بطريقة تخالف من عبر قبله . كثيرا ما يسألني النقاد : لماذا لم تتطور ؟ هم يعنون بهذا لماذا لم تتغير . التطور الذي يعنونه هو في نظري الخروج عن طريقتي وعن شخصيتي . في الواقع ، انا تطورت من ناحية المعلومات والثقافة ، كما اني ، حين اكتب ، أنهج مناهج كثيرة ومختلفة في تكتيك القصة . بل انني من اوائل الذين عددوا اساليب التكنيك في القصة : قصص الرسائل ، قصص التداعي ، وكثير غيرها . قل أن تشبه قصة في مجموعاتي قصة أخرى . فأنت تجد في المجموعة الواحدة عدة اساليب تكنيكية ، الا انها كلها تنتهي الى افهام القارىء والى التأثير عليه تأثيرا اظنه محمودا . لكل شيخ طريقته ، لا أعيب غيري لما يكتبونه ، ولكن عبثا يراد مني أن اقلد غيري . أحيانا اتهرب ، او أحاول التهرب ، حتى من تقليد نفسي .

ــ انت رائد من رواد القصة السورية ... ما رايك في وضع القصة العربية الراهن بوجه عام ، والقصة السورية على وجه الخصوص ، ولمن تقرأ من القصاصين العرب اليوم ؟

ــ كلمة الريادة لا أوافق عليها ، فانا لا اعتبر نفسي رائدا في القصة السورية . الرائد الملهم هو فؤاد الشايب . اما انا فاني اكتب القصة كلون من الوان التعبير عني . وانا اكتبها بطريقتي الخاصة ، طريقتي الشخصية التي لم يتابعني احد فيها حتى الآن . ذلك ناجم عن تميز المكونات لشخصيتي الادبية بما يجعلها بعيدة عن أن يسار في مسارها . الرائد هو الذي يفتح الطريق فيسلكه الآخرون ، وكثير من النقاد يقولون اني اظل مفردا في طريق لا

يسلكها غيري . اما عن وضع القصة العربية بصورة عامة فاجدني عاجزا عن اعطاء راي ذي اهمية فيه . قراءاتي في الايام الحاضرة وفي السنين الاخيرة لما يكتب في الصحف والمجلات قليلة . على اني أقرا قراءات متنوعة في الطب وفي الثقافة العامة مقدمة على القراءة الادبية . وهذا امر آسف له ولكني لا أستطيع التحلل منه . لذلك تجدني ، لا عن تخوف ، لا استطيع أن اسمي لك قصاصين اقرا لهم في المدة الاخيرة بصورة خاصة .

— ما هي في رايك العلاقة بين الادب والسياسة ؟

— في عصور سابقة كان يمكن لاي انسان ان يبقى بعيدا عن السياسة، لبساطة الحياة وقلة التواصل بين الناس . ولكن السياسة في العصر الحاضر اصبحت طبيعة ثانية لكل انسان . والاديب مضطر الى أن يكون سياسيا من قريب او من بعيد نظرا لارتباطه بالناس ، الذين لم يعودوا اميين بل اصبحوا قراء ومستمعين لما يكتب او يقال . واقعيـــا يصبح الاديب في وسط الجو السياسي ، وبهذا يكون عليه أن يعي دوره وأن يقدر امكانياته ويؤدي واجبا عليه بأن لا تكون كتاباته لمجرد الامتاع والتسلية ، بـــل أن ينتهزها وسيلة ويسلكها طريقة لافادة الآخرين ، بفتح عيونهم على ما ينالهم من ظلم أو مــا يتهددهم من مخاطر أو على ما يكون سبيلا لتحسين عيشهم .

في رأيي أن كل صاحب فكر وكل قادر على أن يعبر عن فكره يجب أن يسخر امكانياته ، من فكر وتعبير ، لخير الجمهور الذي هو منه . وهـذا لا يعني أن يستخدم الاديب أدبه في العمل السياسي ، بأن يكون سياسيا بنفسه، بل بأن يكون موجها للسياسيين العاملين ، منبها اياهم الى اخطائهم ودالا لهم على طرق الخير اذا تنكبوا عنها . فانغماس الاديب في السياسة العملية ، أي سياسة الحكم ، غالبا ما يخرجه عن مهمة المفكر المقيم الى مهمة الحاكم البعيد في تصرفاته عن قيم الخير والجمال .

— وعن الطريقة التي تبدع فيها اعمالك ، هل هناك جو خاص للكتابة ؟

— موجبات الكتابة كثيرة لي . . . في العمل الطبي وفي الاسفار وخلال القراءة وسماع اخبار الناس والمجتمع والعالم . لا تنتظر هذه الموجبات الا توفر الوقت لانتاجها ادبا . ونظرا للضيق المتزايد لما املكه من وقت ، فاني اجد عسيرا علي أن استخدم هذه الموحيات في هـــذه السنين الاخيرة التي اعيشها . اصبحت في الواقع مضطرا الى الاقتصار في الكتابة على ما يطلب مني

بالحاح من أصدقائي ، فانتزع من وقتي ما يمكنني انتزاعه لاكتب في موضوع من المواضيع الكثيرة التي إختزنها في ذاكرتي .

في الوقت الحاضر ، بصورة خاصة ، ليست قضية الكتابة عندي قضية جو خاص ، وانما هي قضية وقت يتسع للكتابة . انا متصف بسهولة الكتابة، فلست أجد كبير عناء في الاستعداد لها او في انتاجها . وهذا ما جعلني على رغم الضيق الذي ذكرته في الوقت وكثرة اعمالي واسفاري ، منتجا لعدد كبير من الكتب المطبوعة . فلي نحو عشرين كتابا مطبوعا ، عدا ما لم ينشر في كتاب من مقالات ومحاضرات واشعار ... حتى إني أعجب لنفسي كيف انتجت كل هذا ، وانا الذي أعرف من نفسي قصر اللحظات المتوفرة لدي للكتابة .

بين الأسلوب والسفر

حوار اجراه الاستاذ عدنـــان الداعوق ونشر في مجلة الفيصل السعودية ، في العدد ٢٢ — ربيع الاخر ١٣٩٩ هـ — مارس ١٩٧٩ م .

— نشأت في بيئة بدوية جذورها الى اورمة عربية عريقة وقديمة ، هلا تعرفنا قليلا على تلك النشأة ؟ وما صلتك بها اليوم ؟ واين يقف البدوي العريق في تيار المعاصرة الحديثة ؟

— نشأت حقا في بيئة بدوية ولكني شخصيا ، لم أعش حياة البداوة كاملة . فأسرتي التي تنتمي الى قبيلة حسيقية النسب ، هي قبيلة البو بدران المقيمة في أطراف الموصل ، كانت حين فتحت عيني على الحياة قد استقرت في بلدة الرقة على الضفاف السورية لنهر الفرات ، بعد أن مرت في تنقلها بشمالي الجزيرة بين النهرين وبمدينة الرها، التركية اليوم والتي لا يزال اللسان العربي لسان غالبية سكانها ولا تزال القبائل العربية تحيط بحاضرتها . وبعـــد أن استقرت أسرتي في الرقة أخذ افرادها يبتعدون عن البداوة الى اسلوب نصف حضري في الحياة . فهم في الخريف والشتاء يقيمون في دورهم الثابتة في البلدة الصغيرة حتى اذا حل الربيع خرجوا الى السهول المعشبة في وادي الفرات ليرعوا أغنامهم منتجعين بها مواطن الكلأ ، كحال أسلافهم القدامى ، مستمرين في ذلك الى نهاية الصيف . لقد عاصرت هذا اللون مـــن الحياة وعشته في طفولتي واول صباي فظلت ذكرياته وصوره منقوشة في مداركي الى اليوم على الرغم من زواله من عالم الواقع في هذا الزمن .

واذا كنا ، انا واهلي واسر أخرى مماثلة ، قد فارقنا الحياة البدوية منذ

زمن بعيد فان مظاهر تلك الحياة لم تمح من بيئة بلدتي الرقة ولا مــن محيط وادي الفرات الذي تقع فيه . كما ان صلتي لم تنقطـــع بالناس الذين ظلوا يعيشـون تلك الحياة فلم يهجروها تمام الهجران الا في السنين الاخيرة . ثم ان اعراف البادية وتقاليدها لم تمح من الوسط الذي اقيم فيه على الرغم من زوال الاشكال الاقتصادية والسكنية للمجتمع البدوي فيه ، فظلت ملزمة لكل مــن يقيم في هذا الوسط ، وانا من بينهم ، الزاما يبدو في الاحيان معارضا أو متحديا للقيم المعاصرة من ثقافة حديثة ومتحضرة .

وانت تعتبرني ، كما يبدو من صيغة سؤالك لي ، بدويا عريقا وتتساءل عن موقفي من تيار المعاصرة الحديثة . وانا أجيبك بأن الوقوف في وجه تيار المعاصرة ليس معقولا ولا ممكنا ولا صالحا . ولكن استجابتي له لا تعني التخلي عن القيم الخيرة التي ترجع الى جذور البداوة في نفسي وفي نفس كل عربي . اني كما تعلم ، قد تعرفت الى المعاصرة بكل وجوهها ثقافة وخبرة وممارسة ، ولكني اظل في سلوكي الشخصي مشدودا الى قيم كثيرة مما غرسته في نفسي نشأتي في البيئة البدوية . والى هذه القيم يعود تجنبي لامور في الحياة يعجب معارفي في الشرق والغرب لموقفي منها ويتساءلون عن دافعي فيه ، اهو هذا الوازع أو ذاك . وما هذا الموقف في الحقيقة غير استجابة مني لتقدير النشأة البدوية لبعض التصرفات وتصنيفها لها في ميزان الصلاح والفساد ، ثم بقائي على هذا التصنيف حتى بعد أن شببت عن الطوق وخضت وابناء قومي في المعاصرة الى رؤوسنا .

— كثيرا ما نلمح في كتاباتك وقصصك ملامح البداوة العريقة ... فما صلتك الحقيقية بهذه البداوة ؟ اهي اصالة ارثية ... أم ذكريات لا تستطيع فراقها ... أم هي المادة الخام التي تجد فيها النبع والصفاء ؟

— لكل العوامل التي ذكرتها نصيب في الملامح التي تتبدى في كتاباتي عما تسميه البداوة العريقة . من اين يستطيع الكاتب الصادق ان يستوحي غير من عناصره الذاتية ومن تجاربه ومن ذكرياته عن هذه التجارب ، وذلك ، حتى قبل ثقافته المكتسبة . على ان هناك أمورا تتسبب في بروز اثر البيئة البلادية في انتاجي الادبي . اول هذه الامور ناجم من اني تلقيت ذلك الاثر في مطلع نشأتي وتكويني فظل راسخا في نفسي ملحا على ذاكرتي . وثانيها ان هذا الاثر قد زاد تأكدا وثباتا بالثقافة العربية الكلاسيكية التي تلقيتها في مطلع حياتي اذ وجدت ان المجتمعات التي تصفها كتبنا القديمة في التاريخ والادب شديدة الشبــه بالمجتمع الذي عشت شخصيا في احضانه . رفاقي من الطلاب في مدرسة حلب الثانوية مثلا كانوا ينتسبون في اغلبهم الى بيئة حضرية أو قروية ، تبدو فيها

القيم القبلية والطبيعية الصحراوية امورا ترجع الى عالم بعيد ، خيالي . او مندثر . اما انا فكنت اجدها أمورا واقعية . فالسراب ، وكثبان الرمال، ونجوم الليل بأسمائها ، مثل الثار والنزاعات القبلية وحكايات الهوى العذري، كانت عندي حقائق يومية ، أو انها تكاد تعتبر كذلك ، بينما لم يكن يعرفها أصحابي ولداتي الا كلاما في الكتب الصفراء . ولعل هذا ما دفعني ، بعد ان قدرت على التعبير ، الى أن انزع الى ابراز صوري وذكرياتي الى الوجود ، لاحييها في اذهان الناس ولا عرّف الآخرين بها ، وربما لادهشهم واستحوذ على انتباههم واعجابهم .

على أن هذا لا يعني اقتصار نتاجي الادبي عـــلى اللون المستوحى من البيئة البدوية وصورها . فأنت تعرف انني كتبت كثيرا ، وبنفس القـــوة والالحاح ، في كل النواحي التي خضتها من الحياة . كتبت في القضايا القومية، وفي الاسفار ، وفي القضايا الفكرية والعلمية ، فعبرت في هذه وتلك عمـــا احسست به وفكرت به وعانيته . ومن ناحية اخرى اريد أن اقول مصححا لما يوحيه جزء من سؤالك ، ان انشدادي الى البيئة البدوية لا يعني اني ارى كل ما فيها مثاليا وان مادتها الخام تمثل دوما منبع الصفاء . بعض ما استوحيته من تلك البيئة كان انتقادا لجوانبها السلبية، كما في قصصي عن الآثار والاعراف القبلية الظالمة وقسوة البداوة وجفائهم .

ــ اعرفك شاعرا ... واعرفك كاتبا قصصيا ... واعرفك طبيبا ، فاي هؤلاء هم الاقرب الى عبد السلام العجيلي ... الشاعر ... أم الكاتب القصصي ... أم الطبيب ؟

ــ انني ارفض دوما أن اعزل صفة معينة عن صفاتي الاخرى فأقول انها الاثيرة لدي . هناك انسان اسمه عبد السلام العجيلي لشخصيته الصفات التي ذكرتها مثل ما لجسده صفاته من لون شعر وطول قامة وطابع خاص في نبرات صوته . فهل هناك انسان يقدر على أن يفضل عضوا من جسده على عضو آخر ويقيمه ، من ناحية القرب الى نفسه ، بقيمة اعلى ؟ حتى الصانع الماهر الذي يعتمد في حياته على مهارة اصابعه لا يستطيع ان يقول لك انـــه يفضل يده على انفه . الآخرون هم الذين يفضلون ، في شخصية ما ، خصلة من خصالها على الخصال الاخرى ، كما تفعل انت حتى تجد ان قيمة رجل في ذكائه او في تهذيبه أو في ثرائه ، أو ان جمال امراة هـــو في لون شعرها أو امتشاق قدها أو حلاوة صوتها .....

ـ للاسفار والرحلات طعم متميز في كتاباتك وقصصك... فكيف وجدت نفسك وانت تنطلق ـ لاول مرة ـ نحو العالم ... وماذا كان موقفك ... واين كان هذا الموقف ؟

ـ حين اعود الى ذكرياتي اجدني مسافرا عتيقا ... اعرق في الاسفار مما كنت اقدر ومما يظن الآخرون ممن يعرفونني . لم اكن تجاوزت الحادية عشرة حين انتزعت من بيئتي التي عشت فيها لاقيم واتلقى دراستي الثانوية في حلب التي تبعد مائتي كيلومتر عن الرقة ، وهي مسافة في تلك الايام كانت تفوق ما بين دمشق وباريس في هذه الايام . وسافرت بعد ذلك في نفسي وفي خيالي الواسع الجامح اسفارا كثيرة طول عهد الصبا وايام الشباب ، في عوالم تعرفت عليها من قراءاتي الكثيرة وفضولي المستديم . وقد كتبت مرة اني حين هجرت منزلا كنت اسكنه في دمشق ، ايام الدراسة ، يقع في زقاق مسدود محدود عدد المنازل ، بعد اقامة لي فيه بلغت ثلاث سنين متتابعة ، كتبت اني حين هجرت ذلك المنزل كنت شديد الاسف على اني اغادر الزقاق المسدود وذلك قبل ان اعرف كل ما فيه وكل من فيه . كما اني استشهدت ذات مره بكلمة للكاتب الاميركي هنري دافيد ثورد حين قال : كم سحت وتجولت ، في قريتي الصغيرة !

على انه ليس راء كمن سمعا ... كما يقول المثل القديم . ولا املك الا القول بأن اسفاري الحقيقية بدات يوم ركبت الباخرة لاول مرة متجها الى الغرب ، والى فرنسا وباريس فيها بصورة خاصة .

على ان اعمق احاسيس الاسفار في نفسي ، واسماها ، تلك التي اهدتني اياها اول رحلة لي الى اسبانيا ، والى الاندلس بصورة خاصة . بعد مدريد وطليطلة انطلقت بقطار الكوريوس العجيب في رحلة امتدت نحو عشرة ايام زرت فيها غرناطة واشبيلة وقرطبة . كان ذلك منذ اكثر من ربع قرن ، في زمن لم يكن فيه هذا النوع من الاسفار كثير الرواج ، اكاد اكون الوحيد من طينتي في تلك الرحلة وبالشكل الذي عانيتها فيه . كنت ، في تلك البقاع ، غريبا في عيون الآخرين ، اما في عين نفسي فكنت اراني في داري وارى الآخرين حتى قاطني هذه المدن الاندلسية المعاصرين غرباء طارئين . يا لها من احاسيس تلك التي ملأت جوانب نفسي في تلك الرحلة ، والتي اثرت ولا تزال تؤثر في تصوري ، والتي املت علي كثيرا مما كتبته في مؤلفاتي ، في كتابي حكايات من الرحلات ، ودعوة الى السفر ، وفي قصصي قناديل اشبيلية وفارس مدينة

القنطرة وسوى هذه وتلك مما هو مثبوت في تضاعف مجموعاتي القصصية ومقالاتي المتعددة ومحاضراتي . . .

ـــ ما تزال حتى الآن تسمي نفسك كاتبا هاويا ، بعيدا عن الاحتراف ، ولا اجد ـــ في حدود مطالعتي ـــ من يفوقك من المحترفين كما وكيفا . فلم انت تصر على هوايتك . . . وتستخف بالاحتراف ؟ أم ان حالك كطبيب ناجح يجعلك في موقف الوسط بين الهواية والاحتراف ؟

ـــ حين اقول اني كاتب هاو فاني لا اقصد الاستخفاف بالاحتراف ، وانما اصف واقعا . مهنتي التي احترفها حقا ، فامارسها واعطيها الجزء الرئيسي والكبير ، من وقتي ، والتي استمد منها مقومات العيش ، هي الطب . اني اعمل طبيبا لمدة لا تقل عن عشر ساعات في كل يوم ، واحيانا اكثر من هذا الامد ، فاذا تبقى لي وقت بعد ذلك صرفت جزءا فيه في القراءة وجزءا في الكتابة، اعني في تعاطي الادب . فكيف بعد هذا لا اكون كاتبا هاويا ؟

هذا من ناحية الممارسة والاختصاص الزمني . على اني لا اتصور نفسي محترفا للكتابة ، حتى لو اني كنت أملك لها وقتا اكثر مما أملكه الآن ، أو لو لم تكن لي مهنتي كطبيب . اني لا انظر الى الكتابة الادبية كعمل بل كنوع من أنواع السلوك .

هناك من ينظر الى الامور في الحياة ويباشرها بطريقة عصبية ، او بأنانية ، أو بعمل يدوي ، وهناك من ينظر اليها ويباشرها بطريقة التعبير عن احساساته وعن أفكاره تجاهها بحروف سوداء على طرس ابيض ، وهي طريقة الكتابة الادبية . انها طريقتي في النظر الى تلك الامور ومباشرتها ، ولا اعتبرها عملي ، كما اني لا اظنني قادرا على تحويل هذه الطريقة الى عمل امارسه ولا أحب هذا التحويل . لغيري حريته في أن يمارس هذا التحويل ، ولا اعتراض لي عليه في ذلك . أما أنا فلا .

تبقى قضية التفوق كما وكيفا التي تنسبها الي . اذا وجد هذا التفوق فانه يعود الى عوامل معينة من طبيعتي في مباشرة ما اباشره من عمل . فأنا اعطي هذا العمل من نفسي كل ما اقدر عليه ، مهما كانت منزلته بالنسبة الي ، حرفة كان او هواية . وفي الاثر ان الله يحب من العبد اذا عمل عملا أن يتقنه. يضاف الى هذا ما رزقته من سهولة في الاداء ووفرة في المادة الاولية للانتاج الادبي ، وحسن ظن القراء والناشرين الذي يبلغ ، في أحيان كثيرة ، حد التشديد في الطلب والالحاح فيه .

— نشرت — على ما اعتقد — أول قصة قصيرة لك بعنوان (نومان) في مجلة الرسالة للزيات ، وكان ذلك عام ١٩٣٦ ، في وقت كانت فيه القصة السورية تحبو وليدة الولادة ... وكنت أسبق من غيرك في هذا المضمار ، وعلى الرغم من انك نشرت قصتك الاولى باسم مستعار ونممت على موهبتك الادبية ، التي انكشفت فيما بعد ، فيما يزال النقاد يصفون غيرك وممن اتى بعدك في هذا الفن في موضوع الريادة ...

الا تحس بان النقد قد ظلمك ... وهل ما يزال النقد يجانبك الظلم ؟

— هل ظلمني النقد والنقاد حقا ؟ لا أظن هذا . وحتى اذا كان لي فضل السبق والريادة في نشري لقصة (نومان) التي ذكرتها فان امرها ظل مجهولا ، فلم اطلع احدا عليه الا بعد نحو من عشرين عاما ، وفي دائرة محدودة من القراء . ثم اني اشك في واقعية هذا الفضل نفسه . فالسبق ، في هذا المجال على الاقل ، ليس فضيلة بل هو مصادفة زمنية ، على ان كتابا آخرين في سورية قد سبقوني في كتابة القصة ، زمنيا ، وبصور تتراوح علوا وانخفاضا في الجودة . ثم اني اجد دوما ان وصفي بالرائد ليس وصفا واقعيا . الرائد هو الذي يفتتح طريقا يتبعه فيها السالكون . وأنا أراني مشيت وحدي في درب لم يسلكه معي أحد . فاسلوبي في القصة اسلوب متفرد ، قد لا يكون خيرا من غيره ، ولكنه لا يشبه غيره ..

اخلص من كل هذا الى انه ليس لي عتب على النقد ولا على النقاد ، لا في هذا المجال ولا غيره ، بل اني مدين للنقاد ، باهتمامهم بما اكتبه ، سواء تدحوا في ما كتبوه أو مدحوا،والذي أعرفه ان المدح فاق على القدح منهم بكثير .

— انت صاحب مدرسة واقعية في الفن ، ومدرستك الواقعية حرصت عليها وما تزال منذ البدايات حتى اليوم ... طورت في الاسلوب ولكنك لم تطور في الشكل ... فما حكايتك مع هذا الحرص... وكيف تنظر الى المدارس الحديثة والتجريبية المتطور ؟

— اعود الى ما قلته آنفا اني لست صاحب مدرسة ، اذ اني لم أجد لي متبعا في طريقتي في الكتابة ، وانما انا صاحب اسلوب . بهذا يمكن ان تقول عني اني صاحب اسلوب واقعي في الفن ، واني حرصت على هذا الاسلوب منذ البدايات حتى اليوم.....

اذا نحن اتفقنا على هذا فاني اذكرك بكلمة بوفون المشهورة : الاسلوب هو الرجل نفسه ! ماذا اصنع اذ ظللت انا انا منذ البدايات حتى اليوم ؟ لم

يتغير الرجل ، لذلك لم يتغير اسلوبه. وانا اجاريك في وصفك لادبي بالواقعية، وان كنت لا اعتقد اني واقعي مائة بالمائة . ولكن هذه الطريقة التي اتبعها في التعبير هي طريقتي المفضلة لاني امرؤ واضح ، واحب ان يكون كل ما آتيه واضحا ومفهوما ومعقولا ، في الفكر والعلم والسياسة وفي كل مناحي الحياة ، ومنها الادب . ومرة اخرى الاسلوب هو الرجل نفسه . . .

أما عن المدارس الحديثة والتجريبية المتطورة فاني لست ضدها بشيء ، وان لم تكن مدرستي منها . هناك موهوبون يستطيعون أن يرقصوا على الحبال وان يمشوا على رؤوسهم بدلا من أرجلهم ، اني مستعد للتصفيق لهم اذا جاؤوا في رقصهم ومشيهم بما هو جميل ورشيق ، فالموهبة والقدرة على الاداء البديع هما اللتان تعطيان للمدرسة الجديدة قيمتها ومنزلتها ، لا حداثتها ولا تجريبيتها . كل حديث سيصبح قديما يوما ما ، وكل تجربة ستنتهي الى ممارسة ثم الى اعتياد او الى ابتذال يوما ما .

ــ انت كاتب قصصي لك قراؤك على امتداد رقعة الوطن العربي . وانت كاتب قصصي مرموق .. فمن هو كاتبك المفضل .. عربيا كان أم غربيا؟

ــ لو سألتني هذا السؤال قبل ثلاثين عاما لكان الجواب عليه سهلا . كنت قلت لك اني أفضل توفيق الحكيم ايــــام عودة الروح واهـــل الكهف والمسرحيات القصيرة . اما الآن فليس لي كاتب مفضل . اقـــــرا كتبا كثيرة تعجبني او لا تعجبني ولا أتعلق بكاتب واحد لا غربيا ولا عربيا .

ــ اذا كنت في رحلة طويلة وخيرت بين كتب لهؤلاء الكتاب : فيكتور هيغو ــ همنغواي ــ ديستوفسكي ــ نجيب محفوظ ــ غادة السمان ــ . وكان محددا ان تختار كتابا واحدا ... فلمن يكون الاختيار ... ولماذا ؟

ــ اختار ديستوفسكي دون تردد . فعنده العمق والطرافة والتشويق والنص القصصي الكامل . واختار من كتبه الاخوة كراماروف . على اني لو كان لي الخيار مطلقا ، لفضلت ديوان المتنبي ، ولو كره المتحذلقون . . .

ــ هل يمكن للقصة العربية القصيرة ... وهل أن لها الامكانية لان تترجم الى اللغات العالمية ، فيقبل عليها قارىء الغرب بحماس اقبال قارىء الشرق ... وما الفارق بين القصة عندنا ... والقصة هناك ؟ اذا كان هناك فوارق ، ما اصولها ، وما مبعثها ؟

ــ في خضم ما نشر وما ينشر من القصص العربية توجد نماذج قصصية

قصيرة كاملة ورائعة جديرة بان تقرأ في كل اللغات . والسبب في عدم رواج هذه القصص عالميا هوان العرب اصحاب اللغات التي تسميها عالمية . استاذ في احدى جامعات انكلترا ترجم في اواخر الستينات مجموعة من قصص الكتاب السوريين واعياه ان يجد لها ناشرا في بريطانيا ، ولما جرى ما جرى في حرب ١٩٧٣ وامسك العرب بخناق العالم عن طريق النفط كتب لتلميذ له ان عددا من الناشرين أخذوا يتسابقون للحصول على حق نشر هـــذه المجموعة وان المقدمة التي كتبها لتلك المجموعة قد اعيدت اليه من احدى المجلات مع رجاء ان يطيلها كي تحتل صفحات أكثر من المجلة . واضاف الاستاذ هذا لتلميذه قوله في رسالته : كل ذلك بفضل النفط !.. ماذا جرى بعد ذلك ؟ لقد تقاعست دور النشر بعدمرور عام او عامين عن نشر تلك المجموعة نفسها حين تنبـه الغرب بعد حرب ١٩٧٣ الى أن جمل العرب الذي تمخض ولد فأرا ...

أما عن الفوارق بين قصتنا وقصتهم فاني اجد امرها ثانويا . لولا الهوان الذي ذكرته لكانت معايبنا محاسن ، ولكانت المآخذ علينا ميزات لنا ...

٢٠-٨-١٩٧٨

في كل خمسة عشر عاما مرة

بعد خمسة عشر عاما من القـــاء حديثي المنشور في هذا الكتاب عن الكرامة الانسانية ، في الاحتفال الذي اقامته ، في عام ١٩٦٤ ، رابطـــة الدفـــاع عن حقوق الانسان بمناسبة الذكرى السنوية لاعلان تلك الحقوق، القيت وفي نفس المناسبة ، وبدعوة من نفس الرابطة ، هذه الكلمة مساء الاثنين في ١٠ كانون الاول عام ١٩٧٩.
ترى ما الذي سأقوله ، أو ما الذي سيقوله من سيقوم مقامي ، عن حقوق الانسان وتطبيقها والدفاع عنها بعد خمسة عشر عاما مقبلة أخرى ؟ ...

بعد واحد وثلاثين عاما من صدور الاعلان العالمي لحقوق الانسان ، في ١٠ كانون الاول — ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، لا مفر لنا من الاقرار بأن الصورة التي تبدو فيها ممارسة هذه الحقوق في مختلف اصقاع عالمنا هي صورة قاتمة، ومفرطة القتامة . واعذروني اذا قلت لكم أن شعورا ممضا انتابني وانا أتهيأ للقدوم من بلدتي البعيدة كي أتكلم في هذه الامسية التي اصبح تكرارها في كل عام تقليدا انسانيا وتاريخيا . خيـــل الي اني لست قادما لاكـــرم في الاعلان العالمي لحقوق الانسان عنصرا حيا ، ومؤسسة صحيحة قوية وناشطة ، بل كأني جئت لاقف على سرير احتضـــار كائن عزيز تناوشته العلـــل وانهكته الامراض ، لاعدد مآثره واستمطر عليه شآبيب الرحمة قبل أن يغادر هـــذه الفانية الى الدار الاخرى .

تقول المادة الثالثة من الاعلان الذي نحتفل اليوم بذكرى صدوره الحادية والثلاثين : « لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه » . وانتم مثلي

تقراون الصحف والمجلات ، وتصغون الى الاذاعات ، وتمتلىء اسماعكم بذكر الوقائع وهمس الاشاعات ، فما الذي تجدونه من واقع في تطبيق هذه المادة في كل ارجاء دنيانا اليوم ؟ في اللحظة التي اقرأ فيها عليكم نص المادة الثالثة هذه نعرف جميعا أن مئات المراكب المزدحمة بعشرات الالوف ، بل بمئاتها ، من بني البشر الذين حرموا من حقهم في الحياة والحرية وفي سلامة اشخاصهم ، تجوب بحار جنوب شرقي آسيا باحثة عن بصيص من نور الاعلان العالمي لحقوق الانسان . أولئك ناس المراكب ، كما أصبح يطلق عليهم في الصحف والاذاعات . لفظتهم نظم حكم جديدة في بلادهم ولم تتقبلهم نظم الحكم في البلاد التي آملوا في اللجوء اليها ، فراحوا يضربون في فجاج المحيط ، تتقاذفهم الانواء ويفتك بهم الجوع والمرض وسواطير القرصان المشحوذة ، لا تستقبلهم أرض ولا تحنو عليهم سماء . عن طريق مراكبهم البائسة تحيد السفن الحربية لكبيرة دول العالم الغربي ، الولايات المتحدة الامريكية ، لئـلا تلتقي بتلك المراكب وترتكب الجريمة التي لا تقرها القوانين البحرية الدولية ، وهي الامتناع عن اسعاف المشرفين على الغرق في أعالي البحار . ومع ذلك فان النظم الجديدة التي فر من سيطرتها أولئك البائسون والنظم الاخرى التي تحرم عليهم الدنو من سواحلها ، وهذه الدولة الكبرى التي هي اميركا ، كلها وقعت على الاعلان العالمي لحقوق الانسان وتعهدت بأن تضمن لكل فرد من بني البشر حقـه في الحياة والحرية وفي سلامة شخصه .

ولماذا اذهب بعيدا ، الى بحار الصين النائية ، لاجد المثل على بؤس صحة حقوق الانسان في عالماليوم ؟ وأمام أعيننا ، مئات الآلاف من اخواننا ، من أفراد امتنا العربية ، سلبوا أرضهم في فلسطين ولم تستطع ، بل لم ترد قوى الدول الكبيرة الموقعة على الاعلان الذي نحتفل الآن بذكرى التوقيـع عليه ، أن تضمن لمئات الآلاف من بني الانسان هؤلاء حقهم في الحياة والحرية وسلامة الاشخاص ، لا على أرضهم نفسها ولا على الارض التي لجأوا اليها في جنوبي لبنان . ثم لماذا اقتصر على مراجعة المادة الثالثة من الاعلان العالمي لحقوق الانسان لاتبين الى أين انتهت هذه الحقوق وما الذي تبقى لها من حيوية وقدرة على التحرك ؟ اليكم مثالا نصوص بعض المواد التالية للمادة الثالثة :

المادة الخامسة: لا يعرض اي انسان للتعذيب ولا للعقوبات او المعاملات القاسية أو الوحشية او الحاطة بالكرامة .

لمادة التاسعة:لا يجوز القبض على اي انسان او حجزه او نفيه تعسفا.
المادة الحادية عشرة : كل شخص متهم بجريمة يعتبر بريئا الى ان تثبت ادانته قانونيا بمحاكمة علنية تؤمن له فيها الضمانات الضرورية للدفاع عنه .

المادة الثانية عشرة : لا يعرض احد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة او اسرته او مسكنه او مراسلاته او لحملات على شرفه وسمعته ، ولكل شخص الحق في حماية القانون من مثل هذا التدخل او تلك الحملات .

فلندر الانظار فيما حولنا ، ولنتدبر بيننا وبين انفسنا منطوق هذه المواد ، متسائلين عما يطبق منها على الفرد الانساني الذي يرد ذكره في كل منها ، وما يخرق وينتهك . سنخرج من ذلك بأن حقوق الانسان لم تكن في يوم ما اضيع منها اليوم عند دول العالم، بعد واحد وثلاثين عاما من اقرار هذه الدول للاعلان العالمي لتلك الحقوق وتعهدها بالحفاظ عليه والعمل به .

قلت دول العالم ولم اقل شعوبه ولا قلت افراده . فمـــن المؤسف ان تكون الدولة ، وهي المؤسسة الكبرى التي يقع عليها واجب تطبيق مواد هذا الاعلان والزام الافراد والمجموعات الصغيرة باحترامها ، هي المتهمة قبـــل غيرها بمخالفتها وانتهاكها . انها ، اي الدولة ، تملك القوة والموارد التي تتيح لها القيام بذلك الواجب . ولكنها في بعض الاحوال ، وبعض البلدان ، تركب راسها وتتحول من مؤسسة مهمتها خدمة الشعب الى مؤسسة تستغل افراد الشعب وتضطهدهم لتخدم المصلحة الخاصة لشخص او لاسرة او لمجموعة ، وتصنع من القوة والموارد التي تمتلكها سلاحا تسدده الى صدر الفرد الـــذي تعهدت بضمان حقه في الحياة والحرية والسلامة . واذا ما حوسبت على هذا رفعت امام اعين المستنكرين لوائح بقوانين او قرارات اصدرتها لتجعل منهـــا واجهة شرعية تبرر تصرفاتها المنتهكة لحقوق الانسان . انها شرعية زائفة لم يغفل عن احتمال استخدامها الاعلان العالمي لهذه الحقوق حين ختم مواده بمادته الثلاثين ، وهي التي تقول :

المادة الثلاثون : ليس في هذا الاعلان نص يجوز تأويله على انه يخول لدولة او جماعة او فرد اي حق في القيام بنشاط او تأدية عمل يهدف الى هدم الحقوق والحريات الواردة فيه .

هذه الواجهة من الشرعية الزائفة استخدمها الطغـــاة الذين اخذوا يتساقطون امام اعيننا في السنين الاخيرة . بحجتها حطم الامبراطور بوكاسا جماجم اطفال شعبه لانهم خالفوا تشريعات اصدرها تفرض على طلاب مدارس بلاده ان يشتروا من مصانع نسيجه الشخصية الصدريات التي تحمل صورته الشخصية . وبمثلها هلك في اقبية السافاك ، بوسائل التعذيب الجهنمية ، عشرات الالوف من المواطنين الايرانيين لانهم عارضوا طغيان الشاه المقنن بتشريعات لها مظهرها الدستوري الحقوقي . وكم مـــن شاه ومن بوكاسا

وسوموزا في انحاء عالم الربع الاخير من القرن العشرين ، لم يدركوا بعد ان السعيد من اتعظ بغيره ، لا يزالون سائرين على اثر اولئك الطغاة ، متجاهلين البديهية التي نصت عليها ديباجة الاعلان العالمي لحقوق الانسان حين بدات بهذه الفقرة :

« الاعتراف بالكرامة المتاصلة في جميع اعضاء الاسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية الثابتة هو اساس الحرية والعدل والسلام في العالم » .

سيداتي وسادتي

اذا كنت قلت في مطلع كلمتي ان الصورة التي اراها لتطبيق الاعلان العالمي لحقوق الانسان في هذا الربع الاخير من القرن العشرين صورة قاتمة ، فذلك لا يعني ان تشاؤمي مطلق في مستقبل هذه الحقوق او اني ارى ان الاعلان العالمي كمبدا او كمؤسسة سيلفظ حتما انفاسه نتيجة لما اصيب بـــه من علل وادواء . لست في الواقع يائسا من قدرة البشرية على الحفاظ على حقوق انسانها او على استرداد هذه الحقوق حين تغتصب او تهدد . واذا اعدنا الى اذهاننا ان الاعلان الذي نحتفل اليوم بذكراه انما حرر واقر في الجمعية العامة للامم المتحدة بعد محنة البشرية الكبيرة في الحرب العالمية الثانية فاننا لن نفقد الامل في ان تتمخض المحن التي يمر بها بنو البشر اليوم ، على خطورتها ، عن نتائج ايجابية لا تقتصر على تكرار اعلان هذه الحقوق بل تتعداها الى اخراجها الى حيز التنفيذ الفعال .

على ان هذا الامل لا بد له من عمل ليخرج من طور التمنيات الى الواقع الملموس . واول خطوة في العمل الحق هي ان يدرك كل مسؤول في كل جماعة ما هي عليه حال الحقوق البديهية للانسان في هذا الزمن من بؤس ، وان يدرك كذلك ان السبب الرئيسي لهذا البؤس هو تجاهل ذوي السلطات لقيمة الفرد الانساني ، واستهانتهم به ، وسكوتهم عن ظلامات هذا الفرد وانسحاقه ، بل تسببهم بظلمـــه وسحقه . الفرد الذي هـــو اللبنة الاولى في بنيان الجماعة ونواتها الرئيسية ، والذي كرس الاعلان العالمي لحقوق الانسان مقدمته لتبيان اهميته ، فقد جاء في تلك المقدمة ان « تناسي حقوق الانسان وازدراءها قـــد افضيا الى اعمال همجية آذت الضمير الانساني ، وان غاية ما يرنو اليه عامة البشر انبثاق عالم يتمتع فيه الفرد بحرية القول والعقيدة ويتحرر من الفـــزع والفاقة ... وان من الضروري ان يتولى القانون حماية حقوق الانسان ، لكيلا يضطر المرء آخر الامر الى التمرد على الاستبداد والظلم » .

نعم ، لكيلا يضطر المرء آخر الامر الى التمرد على الاستبداد والظلم !
هكذا قالت مقدمة الاعلان العالمي لحقوق الانسان . والتمرد ، ايها السيدات والسادة ، سيل ليس من السهل التحكم في عواقبه التي نرى اثرها اليوم في بلاد بعيدة وقريبة فيما جرته من فوضى وخراب ، وفيما تسببت به من مذابح وحروب . وان في هذه العواقب عظة للمتعظ . فلعل شرها يتمخض عن خير للانسانية حين يدرك ذوو المسؤولية والسلطان في زمننا هذا ان رعاية حقوق الانسان ، كما نص عليها اعلانها العالمي ، هي طريق السلامة للحاكم قبل المحكوم ، وان بها كما ورد في ذلك الاعلان يندفع الرقي الاجتماعي قدما ، ويرتفع مستوى الحياة في جو الحرية الفسيح ، ويتحقق العدل والسلام في العالم .

الفهرس

مؤسسة الكرمل للدراسات
دمشق ـ سورية ـ شارع الملك العادل ـ ص.ب / ٦٠١٥ /

دار الحقائق للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ـ لبنان ـ ص.ب/ ١٤/٥٥٢٨ /

السعر ١ ل.ل أو ما يعادلها